أولادنا

٤٤

عميل فى المصيدة

تأليف

عبد التواب يوسف

دار المعارف

obeikandl.com

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكترونى – دار المعارف

الرسوم الداخلية والغلاف
أشرف عيد

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref @idsc.net.eg

obeikandl.com

(١)

كراسة الإنشاء

وضعَ رشدى كُرَّاسة الإنشاءِ أَمَامه عَلى مكتبه، وتطلَّعَ إلى سقْفِ غُرْفته، وقَدْ تدلىَّ مِنْهُ سلكٌ كَهْربىٌّ، يَنْتهى بمصْبَاحٍ صَغيرٍ.. نَبَّهه ذلكَ إلى أنَّ الظلامَ قَدْ بدَأَ يتسَلَّلُ، فامْتدَّت يَدُه يُضِئُ المكانَ، وَرَاحَ يُفكر فى الموْضوعِ الذِى طلَبَ منه مُعَلم اللُّغةِ العَربيةِ أنْ يَكْتُبَه..

– «مَا الذِى تُريدُه لمسْتَقْبَلك؟»

ابتسمَ، وَهُوَ يخطُّ فى وَرَقةٍ بيضَاء، كمسودةٍ لعَنَاصِرَ مَوْضُوعه: «المال».. وانتظرَ قليلاً وهو يُدير الموضوعَ فِى رَأْسِه، إذْ خطرَ له السَّفَرُ، وَتوقَّفَ عندَ الكلمةِ قليلاً، واسْتبدلَهَا بكلمةِ «الترحَال».. وَأعجبته مُوسيقَى الكلماتِ، وَمَا فيها من سجْعٍ، فأضَافَ بضحكَةٍ عَالية: «وَخُلُوِّ البَال».. وَبَدَأ يكتبُ مَوَضُوعه ليُغطى هَذِه العناصِرَ الثَّلاثَةَ، ثُمَّ نامَ قَرِيرَ العَيْنِ..

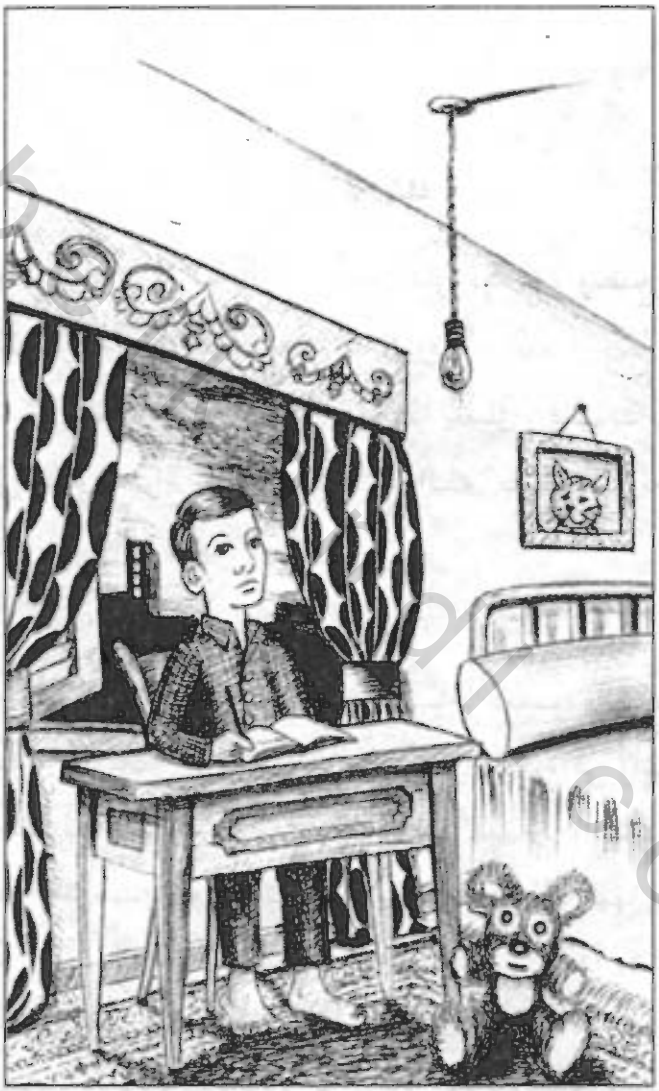

ومعَ الصباحِ جمعَ الأستاذُ الكراسَاتِ من طلاَّب الفصل، ثُمَّ عَاد بها بعدَ بضعةِ أيام، وراحَ يُنَاديهم واحدًا بعدَ الآخرِ، وَيُسَلم كُلاًّ منهم كُرَّاسَةً، مَعَ تعقيبٍ قَصيرٍ..

– مصطفى طه.. أحببتُ فيكَ رَغبتكَ فى أنْ تخففَ آلامَ المرضَى بدراستكَ للطِّب، وَأَمَلك فى أن تُعَالج الفقراءَ مجَّانًا..

– كمال شاكر.. أرجُو أن تتاحَ لك فُرصة الالتحاق بالكليةِ الحربيَّة لتصبحَ ضابطًا تدافعُ عَن البلادِ بشجاعةٍ وإخْلاَص..

– علاء عبد الجواد.. دِرَاسةُ القانونِ لتحققَ العدالةَ بين المواطِنِينَ أمرٌ يستحقُّ منَّا التقدِير..

– أمين جرجس.. اتجاهُكَ للأعمالِ الحرَّةِ شيءٌ طيِّبٌ.. مَكاتبُ الموظفينَ مُكْتظةٌ ونحنُ بحاجَةٍ لأمْثالك..

– رشدى فرحات.. فَكرت فِى المالِ والترحالِ وخلوِّ البالِ.. أى فى نَفْسِك، مَاذا عَن الآخرينَ؟! لاَتَعْليق..

– صلاح عبد السميع.. مَوْضُوعكَ فِى الصَّميم.. الزراعةُ..

obeikandl.com

وتسلَّمَ الجميعُ كُرَّاساتهم، ويفرحُ البعضُ بدَرَجَاتهم، وَيَعْبسُ آخرونَ، وقَدْ يتبادَلُون الاطلاعَ عَلى الموضوعَاتِ، وَعَلى مَامَنَحهم أُسْتاذُهُم مِنْ كلمَاتِ تَشْجيع، مثل: جيِّد، وجيد جدًّا، وممتاز.. وطرحَ عليهم موضوعًا جديدًا قبلَ أنْ يغادرَ حجرةَ الدَّرَاسة، ولَمْ يَفُتْهُ أنْ يلْقِى بنظراتٍ ذاتِ مَعْنى نحو رشدى، وَلَمْ يَعْبأ هذا، وَهَزَّ كتِفَيْه، وهو يقولُ لِنَفْسه..

– مَا العيبُ فيمَا كتَبْتُ؟ كُلُّ النَاسِ تفكرُ فى نفسِهَا.. وكنتُ أصْدق مِنَ الآخرينَ، وأكْثر منهم صراحَةً!

الزملاءُ فى حجرةِ الدراسةِ تهامَسُوا فيمَا بَيْنهم.. موضوعاتُ الإنشاءِ كثيرًا مَا تفضحُ كَاتبيهَا، وَهُم يعرفونَ عن رشدى - فعلاً – أنَّ ذَاتَهُ هِىَ مِحْور حَيَاته، وكانُوا يَرْوُون عنه مِنْ وراءِ ظهرِهِ حكاياتٍ كثيرةٍ تكشِفُ عَنْ أنانيته، وَحُبِّه لنفْسِه، وإعجَابه الخاصِّ بذَكَائه، وتفوُّقِه عَلى البَاقين، وعندمَا حاولَ أن يدافعَ عن وِجْهةِ نَظَره، رَافِضًا مَا قَاله أشِقَّاؤه، ابتسمَ علاء عبد الجواد وقالَ له ضاحكًا، مُخففًا وَقْعَ الأمرِ عَلَيْه..

– هَلْ منَ الممكنِ أنْ يعيش إنسانٌ فى بلدٍ مُحْتل، وهو «خَالِى البَال»؟!.. وَطَننا يا رشدى هَمُّهُ ثَقِيل، ويجبُ أنْ يشغلَ بَالَنَا ليلَ نَهَارٍ.. أرجُوكَ أنْ تعيدَ النظرَ فِى آرائِكَ هَذِه..

وانصرفَ الجميعُ إلى الإعدَادِ للحصّةِ التَّالية.. وظَلَّ رشدى خِلاَلها مُشتت الفكرِ، غائبًا عنهم، يسألُ نفسَه..

– هَلْ أنا كما قالَ الأستاذُ؟! ألا يعملُ هو مُعلمًا لكى يتقَاضَى مُرَتبه فى نهايةِ الشهرِ؟!.. ثم أىُّ عجبٍ فِى السفرِ والترحَالِ لكى نعرفَ العبادَ والبلادَ؟!.. مُعَلمِى ظلَمَنِى..

ولَمْ تنفرجْ أسَاريرهُ إلاَّ بعدَ أنْ هتفَ..

– منَ الأفضلِ لِى أنْ «اشترى دِمَاغى»..

وأعْجَبه أنْ يطردَ من رأسِهِ كُلَّ مَا قَالَه أستاذُه، وزميلُهُ، وَمَا يتحدثُون بهِ فيمَا بَيْنَهم، وادَّعى أنَّ الغيرةَ وراءَ كُلِّ ذلكَ.. وإلاَّ فَمَنْ منهم استطاعَ أنْ يجعلَ كلماتٍ مَوْضوعةٍ مُوسيقيَّةٍ عَلى هَذِه الصورةِ البدِيعَة؟!..

الغريبُ، أنَّ رُشِدى ظَلَّ يذكرُ هَذِه الحَادثةِ البسيطَةِ.. كَانت تقفزُ إلى رأسِه بينَ حين وَآخَر، ولا يدْرى لذلكَ سببًا.. إنَّ أمورًا عدةً تقع هىَ أكْثر أهميَّةً وإثَارَةً، ومعَ ذلكَ يستطيعُ أنْ يتناسَاهَا، وأن يغفلَهَا اللَّهُم إلاَّ هذَا الموضوع الإنشَائى، وتعْقيب مُعَلمه وزمَلائه عَلَيْه.. غَيْرَ أنه كانَ وَاثقًا مَنْ أنَّ الأيامَ سوفَ تجعلُهُ كأنْ لَمْ يَكُن، لكنهَا لَنْ تغير قَطّ منْ أحْلاَمه فى امتلاكِ المال، والتَّرْحَال إلى بلادِ الله، وَلَن يشغلَ بَالَه بالآخَرين، وليسَ منْ مَعَهم أنْ يفرِضُوا عَلَيْهِ التفكيرَ فِيهم، وَلَهُم.. وعندمَا قرأ ذاتَ يومٍ «ما استحقَّ أنْ يُولَدَ من عَاشَ لِنَفْسِه فَقَط» تذكَّرَ موضوعَ الإنشَاء، وكلماتَ مُعَلمه، وتعقيبَ زَميله، ونظرَاتِ تَلاَميذ الفصْل، وحاوَلَ أن يُنَحِّى كُلَّ ذلكَ جَانبًا، لكنَّهُ لَمْ يُفْلحْ فِى ذلكَ بسُهُولَةٍ..

(٢)

الحادث الرهيب

الأيامُ تَمُرُّ، وتفرقَ الزملاءُ كُلٌّ إلى حَال سَبيلهِ.. حَصَلَ «رشدى» عَلى الابتدائيةِ عام ١٩٣٦م، وكَانَ كُلُّ طلاَّبهَا يُخْتبرونَ فيها عَلى مُسْتوى كُلُّ مصرَ، وعَدَدهم لم يكنْ يصلُ يومئذٍ إلى عشرةِ آلاَف.. وبعضُ الرَّاسبين يُكَررونَ المحَاولةَ مرةً بعدَ أُخرى، فإذَا لم يُوَفقوا طَبَعوا بطاقةً يكتبونَ عليها فُلاَن الفُلاَنى. «ساقط ابتدائية..»

الطريفُ أنَّ عدمَ الحصولِ عَلى الشهادةِ الابتدائيةِ كانَ يُيَسِّرُ لهؤلاءِ عملاً كتابيًّا فِى دَوَائرِ الحكُومة، وَكَانُوا يتقاضُونَ راتبًا أقلَّ من زُمَلائهم الناجحِينَ.. وبعض هؤلاءِ يواصلُ الدراسةَ فِى المرحلةِ الثَّانويةِ، إذَا أُتِيحت لَهُمُ الفرصَةُ، واسْتطاعُوا أنْ يدفعُوا المصروفاتِ المدرسيَّة، وَكَانت أيَّامها تثقلُ كاهلَ الأهْل، وأغلبُهُم مِنَ الفقراءِ.. وكانَ الزملاءُ يَلْتقون

بينَ حينٍ وآخَرَ، وهم يتبادَلُونَ الأخْبارَ، ويقدمونَ التهنئةَ لمن وَجَدَ وظيفةً أوْ عَمَلاً، وَلِمَنْ وجدَ لنفسِه مقعدًا فى المدرسةِ الثانوية، أو الصِّنَاعية.. وقدِ التحقَ بها «رشدى»، وهو مِنْ مواليد عام ١٩٢٢م، وسوفَ يبقَى بهَا خمْسَ سنوَاتٍ، ويتخرجُ فيها وهو فى التاسعةِ عشرةَ من عُمره، وهى سِنٌّ مناسِبَةٌ لبدءِ الحياةِ العَمَليَّة..

وكانت مصرُ قَدْ وقَّعَت مَعَ انجلترا فى نَفْسِ العام - ١٩٣٦م - تلكَ المعاهدةَ التِى لمْ يَكُن الجميعُ رَاضِين عنها، لكنَّ تَوْقيعَهَا تَمَّ تحتَ ضغطٍ من الإنجليز، سِيَاسيينَ وعَسْكريينَ، فَقَدْ كَانت انجلترا فى عَجَلةٍ منْ أمرهَا، وتَخْشَى أنْ تنشبَ الحربُ مَعَ ألمَانيا، وأوضَاعها فى مِصْرَ غَيْر مُستقرة، لذلكَ سَارعت بهذهِ المعاهدةِ لتضمنَ البقاءَ فى هذَا المَوْقعِ الحيوى، الذِى يُمكنها منْ أنْ تسيطرَ عَلى قناةِ السُّوَيس، وَتَحْمى مَصَالحَهَا فى المنْطِقَة.. واضطرَّ المصريونَ إلى بعض الهدوءِ، فَقَدْ كانَ الانجليزُ يضربونَ بيدٍ منْ حديدٍ عَلى كلِّ مَنْ تُسَوِّلُ له نفسُهُ أنْ يرفعَ منْ صَوْته ضِدهم..

لكنَّ جذوَةَ الكفاحِ لمْ تَنْطفئ، وظلَّت مُشتعلة، فالمظاهراتُ تندلعُ بينَ وقتٍ وآخرَ، وَمَا من أحدٍ قَادر عَلى أنْ يكبحَ جماحَ نفْسِه، أو يطيقُ أنْ تَبْقى القواتُ البريطانيةُ عَلى ترابنا الوَطنى الطَّاهر، فهى تُلَوِّثه، ونَحْنُ نَأْبَى ذلكَ.

لذلكَ كَانت حركةُ المقاومةِ تَطْفُو عَلى السطح من خلال التجمعَاتِ التِى تنطلقُ مِنَ المدارس إلى الشوارع تهتفُ بسُقوطِ الاسْتعمار، وتطالبُ بالجَلاَء، وَيتصدَّى لها الشرطةُ، إذْ كَانت تحتَ سَيْطرتهم، فقد جَعَلُوا مَنَاصِبَ «مدير الأمن»، و «الحكمدار». والمأمور وضباطِ النقطةِ قَاصِرة عَلى الإنجليز، وَمَا أن تَسيرَ مظاهرةٌ فى الشوارعِ حَتى يَأْمُرُوا الجنودَ المصريين بالتصدِّى لَهَا، والوقُوف فى وجههَا، وتشتيتهَا بكلِّ السُّبُل، وَمَنْ يَتوَانَ من جنود الشرطةِ يَلْقَ عقابًا قاسيًا..

لذلك كَانَ هؤلاَءِ يضطرُّونَ إلى استخدامِ العِصى، والهرَاوَاتِ، يضربونَ بهَا الطلاَّبَ بصورةٍ بَالغة القسوةِ والإيلاَم.. وعندمَا يتوجهُ أولياءُ أُمورهم إلى «الحكمدار» الإنجليزى ليقدِّمُوا الشكاوى ضِد هؤلاءِ الجندِ، يُحسنُ - ذلك

- الرجلُ الخبيثُ «الإنجليزى» اسْتِقْبَالهم، ويؤكِّدُ لهم أنَّ رجالَ الشرطةِ قَدْ تصرَّفُوا دُونَ إذنٍ مِنه، وأنه سوفَ يَمْنَعُهُم من ضربِ الطلاّب، وسوفَ ينزلُ بهم أشدَّ عُقُوبة.. وهكذا، يُوقعُ الخبيثُ بينَ الناسِ وبينَ الشرطةِ المصرية، وقَدْ يُعَاقبهم بلاَ ذَنْب!

وَذَاكرةُ «رشدى» تختزنُ الكَثيرَ مِنْ أحداثِ تلكَ الفترةِ، وهو يتذكَّرُ ذلكَ اليوم الذِى كانَ يشاركُ فيه زملاءَهُ فى مظاهرةٍ ضخمةٍ ضدَّ الإنجليز، وإذَا بالشرطةِ تُهَاجمهم فى أحدِ الميادين، لتفرِّقَهم.. وكان منهم ضابطٌ يركبُ حصانًا يرقبُ المعركةَ بينَ الطرَفَيْن، ويحرِّضُ الجندَ ضدَّ الطلاّب، واضْطرَّ هؤلاءِ إلى أنْ يقذفُوا الشرطةَ بالحجارَةِ، وكانَ الشبابُ الصَّغيرُ مَاهِرًا فى تصْويب الحجارةِ بدرجَةٍ كبيرةٍ، وَقدِ اكتسبُوا تلكَ المهارةِ مِنَ التَّدريبِ عَليها، وَبخَاصةٍ وَهم يريدونَ أن يكونُوا بعيدينَ عنْ أيدِى العَسْكر، حَتى لا تنالهُمْ العِصى.. وكانَ أبناءُ الريفِ منهم يحسنونَ قَذْفَ الأحجارِ، لأنهم يفعلُونَ ذلكَ مَعَ بلحِ النخيل.. إنَّ الواحدَ مِنهم يُلْقى

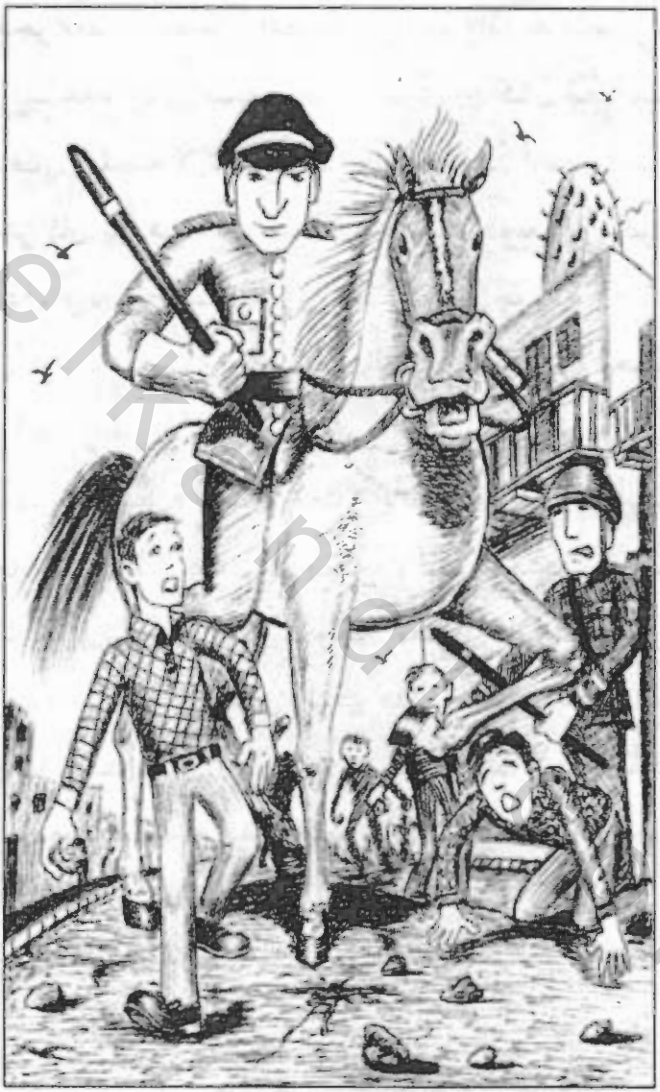

بالحجرِ بعدَ أنْ يطوّحَ ذِرَاعه عدةَ مرَّات، وإذَا به ينطلقُ مِنْ بينِ أصَابعه، ويظلُّ يُتَابعُه بعَيْنيه ليرى إن كانَ قدْ أصابَ الهدَفَ.. والمدينةُ لاَ تَنْسى ذلكَ اليوم، فقدْ أرسلَ أحَدُهم بحجرٍ كانَ يئزُّ فِي الهواءِ، كأنه صَاروخ، ومضَى ونظَراتُه ترصُدُه، وَإذا به يصيبُ رأسَ جُندى فى جَبْهته، والفَتَى يرقبُ وجهَ الجُندى.. وأصابَ الهلعُ الطَّرَفين.. الجندىّ للإصَابة، والفَتَى لأنه عَرَفَ جيدًا مَلاَمح المصَاب، إذْ هو وَالدُه، شخصيًّا.. وسَقَطا معًا، الأب: لأنَّ الحجرَ أصَابه وجعلَ الدمَ ينبثقُ ليُغَطى وَجْهه، والابنُ تَخَشَّبَ ذِرَاعُه، وتصلّبَ، وأصيبَ بالشَّلَل.. وَنُقِلاَ معًا إلى المستشْفَى، وقدِ اهْتزَّت المدينةُ بعنفٍ وعُمْقٍ بسببِ هَذَا الحدَث الجلَل، وظلَّ حَدِيثها لوقْتٍ طَوِيل.. ولم يَعْبَأ به رشدى وَلَمْ يتوقَّف عِنْدَه، فهو مشغولٌ بنفْسِه عَنْ هَذِه الأُمُور، وَلاَ يُشَارك فيها مِنْ بَاب (خُلُوّ البَال).

(٣)

أحداث جسيمة

أنهى «رشدى» دِرَاسته فِى المدرسةِ الصِّنَاعية، وقَدْ نَشَبت الحربُ فعلاً، مَا بينَ المحورِ مِنْ جَانب: ألمانيا وإيطاليا واليابان، وما بين الحُلَفَاء: إنجلترا وفرنسَا وفيما بعد أمريكا.. وقد عَانت مصرُ الكثير مِنْ ويْلاَتِ هَذِه الحرْب، وَتَرَاكمت الدُّيُونُ عَلى إنجلترا، لمصر، لأنَّ الجنودَ الإنجليز عَاشُوا عَالةً عَلى بلادِنَا طوَال الوَقْت، وجاعَ شعبنَا ليأكُلُوا، وتعرَّى ليلبسُوا. ومصرُ صابرة، عَلى أملٍ واحدٍ هو أنْ يَنْتهى كلُّ ذَلكَ بخُرُوجهم مِنْهَا، وحُصُولها عَلى حريتهَا كاملةً، كَمَا يَنْتهى احتلالُ انجلترا للسُّودان، وَقَدْ أظلمت مدنُنَا بسببِ غاراتِ الألمان والإيطاليين، وارتفعَت الأسعارُ ارتفاعًا فاحشًا..

وعندمَا انتهى «رشدى» مِنْ دِرَاسته، بعد أنْ تعثَّرَ عِدّةَ مَرَّات فى صُفُوفها، توقَّعَ أهلُه أنْ يُبحث لَه عنْ عملٍ يَدَوىّ،

يزدادُ به خبرةً بعد أنْ أتْقَنَهُ خِلاَل سنَوَاتِ الدراسَةِ، لكنهُ مع الأسفِ الشديدِ لمْ يكنْ يحبُّ هَذَا اللَّونَ مِنَ العمل، بلْ ويضيقُ به كلَّ الضِّيق، ويرددُ له الجميعُ أنَّ هَذَا العملَ شرفٌ كبيرٌ، وَلكنه يرفضُ ذلكَ، وَيُكَابر، ويحاولُ أنْ يبحثَ عَنْ «وظيفةٍ» أو عملٍ مَكْتبى، وكانَ ذلكَ ميسورًا، فى ذلكَ الوقتِ.. لكنه كانَ عملاً رُوتينيا، لا يكتسبُ منه «رُشدى» خبرةً أو دِرَايةً بشىءٍ جديدٍ، كُل مَا هُنالك أنه يَتَقَاضى رَاتبهُ أولَ الشهرِ، ويُبدِّدُه فِى أسرعِ وَقْتٍ، دونَ أن يتطلَّعَ إلى الرُّقى بنفْسِه، وتنميةِ مَهَاراته.. وهو فى نفسِ الوقتِ لم يعطِ اهتمامَهُ إلى مَا يَجْرى حَوْله، رغمَ الأحداثِ الجسامِ التِى تَقَعُ، وإنْ تَرَامى إلى أُذُنيْه بعضٌ ممَّا وقعَ فى معركةِ «العَلَمين».. وكانت مصرُ كُلُّها قد انْقَسَمت إلى فريقيْن: واحدٌ منهمَا يتمنَّى لو أنَّ الألمان والإيطاليين زحَفُوا عَلى البلاَدِ، وهزمُوا الإنجليزَ، وأجْبروهم عَلى الجلاءِ عَنْ مصرَ، ويَوْمها قامتْ مُظَاهرةٌ ضخمةٌ تهتفُ فى الإسكندريةِ إلى الأمامِ يَا «رُومِيل».. وكانَ ذلك مذهلاً، خاصَّة وأنَّ الانجليزَ لمْ

يتصدُّوا لَهَا، ولمْ يعتقِلُوا أحدًا ممَّنْ شاركَ فيها، الأمرُ الذِى إنْ دلَّ عَلى شىءٍ فهوَ يدلُّ عَلى أنَّهم مُدَبروهَا لأمرٍ فِى نُفُوسِهم، إذِ انتهزُوا الفرصةَ، وأقالُوا الحكومةَ القائمةَ، وفرضُوا حكومةً أخرى عام ١٩٤٢م.

كُلُّ ذلكَ لَمْ يحركْ «رشدى»، ولَمْ يدفَعْه إلى الاهتمام. بمَا يَجْرِى أو مُتَابَعَته.. وكَان الفريقُ الثَّانى يُؤَيدُ الانجليزَ والحلفاء، ويسَانِدُهم، عَلى أملٍ واحدٍ، هو أنْ يُحققوا مئاتِ الوعودِ التِى تكررَ بَذْلها لَنَا بالجلاءِ عَنِ البلادِ، لكنها ذَهَبت أدْراجَ الرِّياح، وظنُّوا أنَّ باسْتِطاعتهم أنْ يَفْرِضُوا عَلى البلادِ بقَاءَهم عَلى أرْضها.. وكلُّ الذِى فعلُوه هُوَ أنهم قامُوا بالجلاءِ عَنِ القَاهرة عام ١٩٤٦، وارتفعَ علمُ مصرَ الحبيبِ عَلى قلعةِ صلاَح الدين، التِى كانَ الإنجليزُ يعسكرونَ فيها عِنْد قُدُومهم عام ١٨٨٢م.!..

الغريبُ فى أمرِ رشدى أنه اتجهَ للعملِ معَ القواتِ البريطَانيّة، فى منطقةِ القناةِ، لأنهم يدفعونَ أجورًا أكبر، وكُلَّمَا عَاتبه أحَدُهم أو توجَّهَ إليْه باللَّوم، ردَّ عبارةً

سَخِيفةً، يطلقُ مِنْ بعدِهَا ضحكةً هِسْتيريةً رخيصةً.. كانَ يقولُ..

- «اللِّى يتجوَّزْ أمِّى، أقُول لَهُ يَا عَمِّى »!..

وكثيرًا مَا عَقب سَامعوهُ بعبارةٍ تصلُ إلى أُذُنيه، لكنَّهُ يتظاهَرُ بأنه لَمْ يَسْمعها.. كَانُوا يقولونَ له..

- «جَالَك العَمى» ..

ولم يتشرَّفْ رشدى بأداءِ وَاجب الخدمةِ العَسْكَرِيَّة، وعندمَا اسْتُدعى للتجنيدِ، فَرضَ عَلى أهْلِه أنْ يَبيعُوا قطعةَ أرضٍ صَغِيرةٍ، كَانتْ هى البقيّة البَاقية منْ أملاكِ الأُسرة، ليدفعُوا له مَا كَانَ يُسَمى يومئذٍ «البَدَليّة».. أى أنَّ منْ يريدُ ألاَّ يلتحق بالجيش عَليه أنْ يدفعَ للحكومةِ - تعويضًا عن ذلكَ - مبلغًا مِنَ المال.. وهو نظامٌ غريبٌ، وَضعَه البريطانيونَ ليبقَى الجيشُ مِنَ الفقراءِ، كمَا كانُوا يُعْفون المتعلمينَ وحفظةَ القرآنِ الكريمِ حَتَّى لا يلتحقَ به هؤلاَء الذينَ حَصلُوا عَلى قدْرٍ منَ التعليمِ، فيظَلّ جنودُه أمِّيينَ جُهَلاَء..

لذلكَ لمْ يُشَارِكْ «رشدى» فى حرب ١٩٤٨م. لَقَدْ نشبَتْ حربُ فلسطينَ، بعدَ إعلانِ قِيَام إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨م، وحَاوَلت البلادُ العربيةُ أن تنقذَ ما يمكنُ إنقَاذُه مِنْ أرضِ فلسْطين، وَتمكَّنت مصرُ منْ أنْ تستخلصَ قطاعَ غزّة، كما كانَ فى الإمكانِ الاحتفَاظِ بجَانبٍ مِنَ الضفّةِ الغربيّة لنهر الأرْدن، لكنَّ المؤَامَرَاتِ الصُّهيونيةِ والدول الكُبْرى سَانَدَت إسرائيلَ لتصبحَ خنجرًا فى قلبِ البلادِ العربيّة، وسَارعت باحتلال أرضِ النَّقَبِ وُصولاً إلى البحرِ الأحْمر.. وأشاعَت فى كُل الدُّنيا أنَّ العربَ الفلسْطينيين قَدْ بَاعُوا أرْضهم، وكَانُوا كَاذِبينَ، فلمْ تكنْ إسرائيلُ تمتلكُ أكثرَ مِنْ خَمْسةٍ بالمائة منْ مسَاحة ما احتلُّوه، وكانت تلكَ الأحداثُ كارثةً كَبيرة، لم يعن «رشدى». بمعْرفتهَا وَلاَ إعْطَائها اهتمامَه، لأنه مشْغولٌ بنفْسِه عَنْ كلِّ شيءٍ..

وعندَما ألغَت مصرُ معَاهدةَ ١٩٣٦م انسحبَ العاملونَ المصريونَ مِنْ معسكراتِ الإنجليزِ فى القناةِ.. كانَ ذلكَ فى أكتوبر عام ١٩٥١م، لكن رشدى كانَ فى دهشةٍ لذلكَ، وتمنَّى

لو أنه استطاعَ البقاءَ، غيرَ أنه خَشى تهديدَات الفِدَائيين الذِينَ راحُوا يُغيرونَ عَلى البريطانيينَ فانسحبَ مَعَهم، ولم تَتْركه حكومةُ مصرَ عَاطلاً، بلْ ألحقتْهُ بعملٍ رأى أنه لاَ يليقُ به، فتركَه عَلى أملٍ أن يجدَ أفضلَ مِنْه..

obeikandl.com

(٤)

اللقاء الرهيب

كَانَ كلُّ ما يَسْعى إليْهِ «رشدى» أنْ يجدَ عملاً يُدرُّ عَلَيْه مَالاً كثيرًا، بلاَ مَجْهود.. وعندمَا قَامت ثورة ٢٣ يوليو أصْبحت الأمورُ أصعبَ عَليه ممَّا كانَ، فالبلادُ تتجاوبُ معهَا وتعيشُ أيامًا فيها انتصاراتٌ لمنْ يُريدُ أنْ يُعطى ويأخُذَ، وهُوَ لَمْ يتعوَّدْ قطّ عَلى العطاءِ والبذْلِ، لذلكَ اضطَرَبت أُمُورُه أكثر وأكْثر، وهو لا يحسُّ بنفْسِه مُنتميًا لمَا حَوْله، ولاَ لما يجرى.. هو يريدُ أنْ يَثرى على حسَابِ الآخرينَ، والفرصةُ ليْسَت مُتَاحة لهذَا، والقطارُ ينطلقُ بسرعةٍ وهو غيرُ قادرٍ عَلى أنْ يَلْحَقَ بِهِ، ليستْ له عَلاَقة بالزِّرَاعة، ولاَ بقوانين الإصْلاح الزِّرَاعى.. وَلَيْسَتْ له صلةٌ بالصِّنَاعة، رَغم تخرُّجه من مَدَارسهَا.. كَما أنه لَمْ يُمَارِسْ التجارَة.. وَضَاق بِهِ الحَالُ، وفكَّرَ كما يفكِّرُ بعضُ النَّاس: الحلُّ هو التِّرحَال.. العملُ فى

بلَدٍ عَرَبى.. المرتباتُ هناكَ كبيرةٌ، وَمَيْسورٌ له أنْ يحصلَ عَلى المالِ الكَثير، وله صديقٌ سَافر إلى ليبيا، وحَدَّثه طويلاً عَنْ أنه سوفَ يجدُ فيها ما يَسْعى نَحوه، فأعدَّ نفسهُ ليسَافِرَ إليْهَا، من أجْلِ أن يحققَ حُلْمه بالثروةِ السَّريعة..

وفى طرابلس - عام ١٩٥٦م - وجدَ نفسَه يكررُ التجربةَ - ذاتَهَا - التى عَاشها فى بلَدِه: بلا عَمَل.. وما قامَ به من قبلُ لمْ يؤَهلهُ لعملٍ حَقِيقى.. لاَ عَمَلَه فى الجيشِ البريطانى، وَلاَ الوظَائفَ الصَّغيرةَ التى تقلَّبَ فيهَا مَنَحته خبرةً يمكنُ استثمارهَا، وإذَا به لا يجدُ له ملاذًا غَيْرَ المقاهِى، يصرفُ وَقْتَه، ونقودَهُ القليلةَ فيها، وينتظرُ لعلَّ القدَرَ يحققُ له شيئاً مَا.. وفى المقهىَ يلتقِى الناسُ، ويتعارفُونَ، وأيضًا يتبادلُونَ الحديثَ فى مودَّةٍ، ودونَ هدفٍ إلا التَّسْلية.. وَفى وَاحدةٍ منَ الجلسَاتِ تعارفَ عَلى شَاب قدمَ له نَفْسَه عَلى أنَّ اسْمَهُ (سليم)، وقالَ إنه (لبنانى) الجنسيّة، وَطَالت بهما الجلسةُ، وَتَفرعَ الحديثُ، وَأدْرَكَ «سليم» أنَّ «رشدى» يرغبُ فى الحصولِ عَلى المالِ، منْ عملٍ لا يبذلُ فيه مَجْهودًا.. وعرفَ

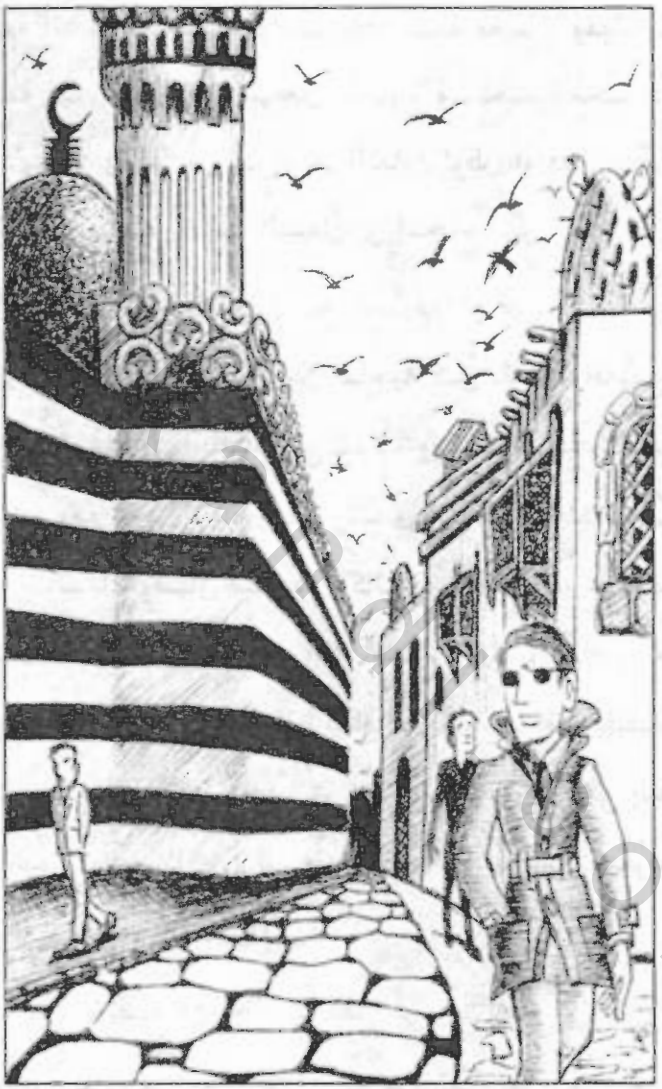

«سليمُ» أنه أمامَ شخص مناسبٍ جدًّا لمهمةٍ مُعَيّنة، ولمهنَةٍ مَا لاَ قيمةَ لَهَا، وَلاَ تحتاجُ لمؤهل بذَاته، وَلاَ لخبرةٍ مُحَدَّدة.. فقطْ لابدَّ لمنْ يقبلهَا أنْ يكونَ بلاَ انْتمَاءٍ: لوطنٍ أوْ دينٍ أوْ قيمٍ يتَحلَّى بهَا، ويؤمنُ بأنهَا السبيلُ إلى النجاحِ المَالى.

تكررتْ لقاءَاتُ «رشدى» مَعَ «سليم»، وتقاربَا أكثر منْ خِلالهَا، وبدأ سليم يتحملُ عن صَاحِبه كلَّ نفقاتِ المقْهَى، بلْ وكانَ يدعُوه إلى الطعامِ فى كَرَمٍ، وبذلكَ تَوَثقت الصلةُ بينهمَا.. ومعَ مُرورِ الأيَّام عَرَف رشدى أنه لَنْ يجدَ لنفْسِه عملاً مناسبًا، وضاقَ صَدْرُه، وَكَانَت تفلتُ منه عِبَاراتٌ يستدلُّ بهَا من يسْمَعُه إلى أنه أصبحَ لاَ يؤمنُ بالعُرُوبةِ، والعربِ، بلْ كانَ أحيَانًا يتلفظُ بكلمَاتٍ يكتشفُ منهَا النَاسُ أنه لاَ يُؤمنُ إلاَّ بالمَال، فحسْب، وأنه مُسْتعدٌّ لأَنْ يَسْعى إليه بكلِّ السُّبلِ والوَسَائل.. لذلكَ فَقَدْ رحَّبَ ترحيبًا شديدًا بعرْضٍ قدَّمه لَهُ «سليم»، إذْ قالَ له:

– إنَّنى أستطيعُ أنْ أجدَ لكَ عملاً فِى إيطَاليا..

- أرجُو أنْ أجدَ فرصةً خارجَ بلاَدِنَا.

- عِنْدِى فِى جنْوَة أصدقَاءُ يقدرونَ عَلى ذَلِكَ.

- سَاعِدْنى من أجْلِ الوصُول إليْهم.

- سوفَ أفْعَلُ..

- وَفِى أقربِ وقتٍ، لَوْ سَمحْتَ..

ومَضَتْ أيامٌ قَلاَئل ووجدَ «رشدى» نفسَه فى الطائرةِ مَعَ «سليم» فِى طَرِيقهما إلى إيطاليا، وقد تصوَّرَ أنه سوفَ يجدُ فيها ما فشلَ فِى العُثُورِ عَلَيْه فى مصرَ وليبيا.. ونزلاَ معًا فِى وَاحدٍ منْ فَنَادِق رُومَا، وهوَ يكادُ يطيرُ منَ الفرحِ.. هَا هُوَ سيحققُ مَا كانَ يتمنَّاه، ويرغبُ فِيه.. وراحَ وهو يتجولُ فِى الشوارعِ يهمسُ لنفْسِه بصوتٍ يكادُ يسمعهُ المارَّةُ..

- مَالى أنَا وهذَا العذابُ الذِى يحدثُ فِى الوطنِ العَربى؟ مَالِى أنا والعُرُوبة؟ والقَوْميّة؟!.. لقدْ قَلَبُوا رُؤوسنَا بكلاَمٍ عَنِ الوَحدةِ، وجلِيسِ السُّوءِ خيرٌ مِنْهَا، وصَدَّعُوا أدْمِغَتَنَا بأحَادِيث عَنِ العدَالة، والحقوقِ الإنسانيّة وَإذَا بنَا نعيشُ

أيَّامًا قاسِيَة، أمَّا الحريـةُ فلـيسَ لَهَـا وجـودٌ حَقِيقِـى إزاءَ مـا يحصلُ عليه العمالُ والفلاحُونَ مِنْ حقوقٍ وَمِيزَاتٍ.. أمَّا هنَـا: فى إيطاليا، فمـا مِـنْ شـىءٍ إلاَّ وهـو رائـعٌ وجميـلٌ، وسـوفَ تَمْتَلئُ جُيُوبى باللِّيراتِ والدُّولاَرات والجنيهاتِ الاسْترلينى.

وعندمَا مَنحه «سليم» مائةَ ألفِ لِيرة كادَ يفقدُ صَوَابه، هَا هى النقودُ تجئُ إليهِ دونَ أن يَسْعى إلَيْهَـا، ولسـوفَ يُنْفِقهـا فـى سخاءٍ عَلى نَفْسِه، وَيُحَدِّثها ضَاحِكًا..

– يطلبونَ مِنَّا أنْ نعملَ منْ أجلِ أنْ نجعلَ بلادنَـا العربيّـة مُتقدِّمَة، لماذَا نتعبُ أنفسَنَا مَا دَامت هناكَ بلادٌ مُتَقدمة فعْلاً، نستطيعُ أنْ نعيشَ فِيهَا؟!.. إنهم إذَا جَـاءُوا إلى هنَـا فسـوفَ يروْنَ التَّقَدم، والنجاحَ، والحياةَ اللائقةَ بإنسانٍ مِثْلى.

(٥)

بداية التورّط

قَالَ «سليم»، مُحدثًا صَاحِبَه «رشدى»:

– انتظرْ.. فى الخَامِسَة سيمرُّ بكَ شخصٌ مَا بالفُنْدُق..

وبقَى «رشدى» فى غُرفتـهِ، ولم يصلْ ذلكَ الشخصُ فِى مَوْعدِه.. لقد تأخَّرَ طويلاً، حَتى شعرَ «رشدى» بالقلقِ يتسرَّبُ إلى نفسِه.. إنَّه وحْدَه، ولا يعرفُ إلاَّ القَلِيل عَنْ «سليم» الذِى التَقَى به فى طَرَابلس، كَما أنه لا يعرفُ هذَا الشَّخْصَ القادمَ إليْه والذِى لم يصلْ بَعْد، رغمَ أنَّ وقتًا طويلاً قدْ فَاتَ عَلى موْعِدِه..

– ماذَا يَحْدث لَوْ أنهم تخلُّوا عَنِّى؟ كيفَ أضَعُ ثِقتى فِيهم إلى هذَا الحدِّ، معَ أنى لسْتُ وَثيق الصِّلَة بهم؟

وتنفَّسَ «رشدى» الصُّعَدَاء حينَ دقَّ جرسُ التِّليفون فِى غُرْفَتِه، ليعلنَ له المتحدثُ أنه قَدْ جاءَ إلى مَقَابلته، فنزلَ إليه

«رشدى»، وقدَّمَ له القادمُ نفسَه بأنَّ اسْمَه: (عَادل).. وكانَ يتحدثُ اللّغةَ العربيّة فى سهولةٍ ويُسْرٍ، بلْ وبطلاَقةٍ رغمَ أنَّ شكْلَهُ لم يكنْ يدلُّ عَلى أنه «عربى».. وكَانَ اللقاءُ أشبه بتحقيقٍ مَعَ «رشدى»، فقد طرحَ عليْهِ «عادل» ألفَ سُؤالٍ وسُؤَالٍ.. لَمْ يتركْ شيئاً فى حَيَاته لم يَسْأله عنه.. اسْمه. تاريخُ ميلاَدِه. أبَوَاه. أقَاربه. أهْله. تعْليمه. الأعمالَ التِى مارسَهَا طِيلةَ حَيَاته..

ولم يكتفِ «عادلُ» بهذهِ الأسئلةِ بلْ راحَ يَسْأله عَمَّا يَجْرِى فِى مصرَ، وَرَأيه فى ذلكَ، وامتدَّت جِلْستهما إلى ثلاثِ ساعاتٍ كَامِلاَت، انتهتْ بمنْحَةٍ أخرى منَ اللِّيراتِ، لكنَّهُ فى هَذِه المرَّة، سَأله أنْ يُوَقعَ عَلى إيصال أبْرَزَهُ لَهُ، ولَمْ يُمَانعْ «رشدى» قَط فِى التوقِيعِ، فَمَاذَا يمكنُ أنْ يُصيبَه منْ ضررٍ إزَاءَ ذَلك؟!.. لقد تسلَّمَ المالَ، ومَا دامَ قد حَصَلَ عَليْه، فلاَ مَانعَ أبدًا منْ أنْ يَضعَ توقيعَه عَلى الإيصَال.. وانصرفَ «عادل» بينمَا خرجَ «رشدى»، ليستمتِعَ بالمدينةِ الجميلةِ «روما».. وَلَمْ يتنبَّه خلالَ تجوَاله إلى أنَّهَا قَدْ زَيَّنت نفسَهَا بوضعِ ١٤ مسَلَّة

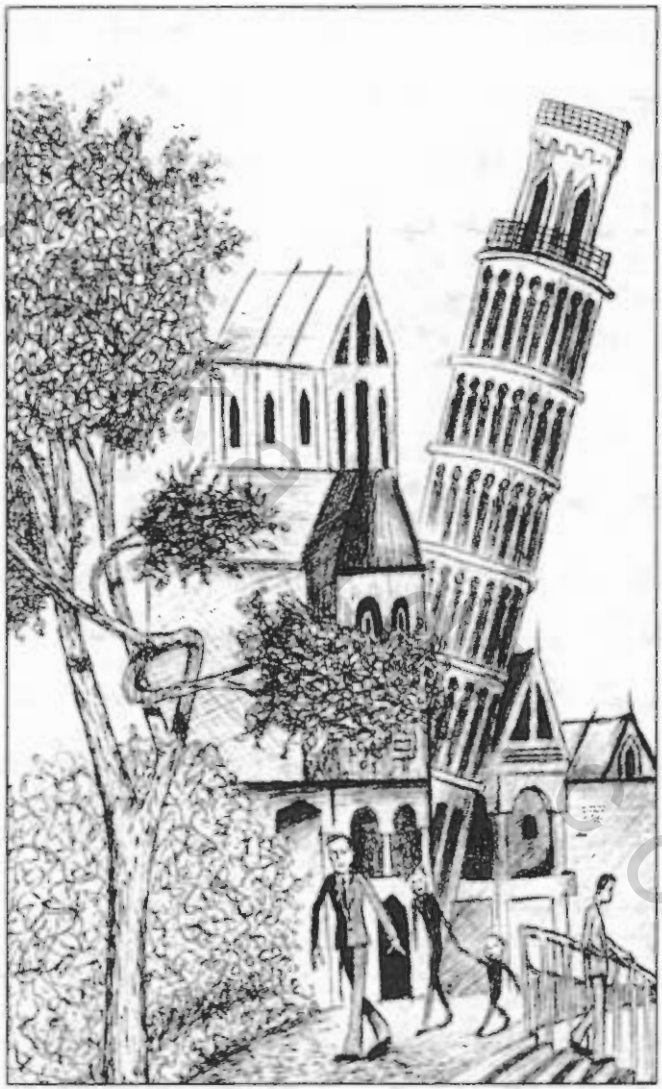

فى مَيَادِينها، بينهمَا مِسَلَّتَان أصْليتانِ رَائعتانِ تَمَّ نقلهمَا مِنْ مصرَ، لتكونَا أجْمَل مَا فِى مدينةِ المتاحِفِ الرَّائعة، والفنِّ التَّشْكيلى الفَريد..

الشىءُ الغريبُ أنَّ «رشدى» لَمْ يفكرْ قَطّ: أىَّ عمل هَذا الذِى سوفَ يُسْنِدُونه إليه؟ ولماذَا كلُّ هذَا المَال الذِى يمنحُونه إيَّاه، دُونَ أنْ يكونَ هناكَ مُقَابل له.. لقد وصلَ المالُ إلى يَدَيْه، ولَه أنْ يُنْفقه كَمَا يَشَاء، وأنْ يَقْضى كلَّ لَحَظاته فى هَذِه المدينةِ مُسْتمتعًا بكلِّ مَا فيهَا.. هُو بالطَّبع لم يزرْ متحفًا واحدًا، ولاَ أثرًا من آثارِ المدينةِ، وهى فعلاً مَلِيئةً بآثارٍ بديعَةٍ، تستحقُّ المشاهدةَ والزيادةَ، لكنه رَاحَ يتنزهُ فِى (فيافينتو) أجْمل شَوَارِعِ المدينَةِ، وجلسَ فِى بعض مقاهيهَا الأنِيقةِ، وارْتادَ مطعمًا لَطيفًا، تناولَ فيه عِدّةَ أطبَاقٍ منَ المكرونةِ الإيطاليّةِ الشهيرةِ، وَأوَى إلى فراشه فى تلكَ الليلةِ سَعيدًا سعادةً كبيرةً، إذْ لمْ يكنْ يفكِّرُ قَط فى مصدرِ المالِ الذِى حَصَل عَلَيْه.. أو مَاذَا يريدُ منهُ الآخرونَ فِى مُقَابل ذَلك؟!.. لَقَدْ مضَى عنه «عَادل» دُونَ أنْ يقولَ له كلمةً واحدةً

عَنْ نوعِ العملِ الذِى سيلتحقُ به،والمرتَّبِ الذِى سوفَ يحصلُ عَلَيْه، ومثل هَذِه التَّفَاصيلِ التِى يجبُ أنْ يُعرَّفَ بها قبلَ أن يُعْلنَ قُبولَه لَه.

وهنا سَألَ نفْسَه:

مَا الذِى يمكنُ أنْ يحدثَ إذَا لمْ أجد العملَ مُنَاسبًا لِى؟! وكيفَ أسْتطيعُ أنْ أسددَ لَهُمْ مَا أعطُونِى إيَاه؟!

وبدأ القلقُ يُسَاورُه.. لكنْ لمْ يخطرْ عَلى بَاله قطَ أنه قدْ بدأ يتورَّطُ، وظَنَّ أنَّ الأمورَ سوفَ تسيرُ كَما تخيَّلَهَا، وأنها سَتصِلُ به إلى برِّ السَّلاَمة، مُحققةً كُلَّ مَا كانَ يَتمنَّاه ويتطلَّعُ إليْه، وراحَ يحاولُ أن يطردَ عنه القلقَ، والشَّكَّ، وسوءَ الظَّن. ويشعرُ بقليلٍ مِنَ الهدُوءِ، ويأملُ خيرًا، خاصَّةً وقَدْ وَعَدَه «عَادِلٌ» هذَا بأنه سوفَ يمرُّ عَلَيْه بعدَ يومين، لمناقشَةِ تَفَاصِيلِ العملِ الذِى سَيُسْنَدُ إليْه..

إذَنْ، أمَامَه يومَان طويلاَن يستمتعُ فيهمَا برُومَا، وشوارعهَا، وَمَيَادينهَا، ومقاهِيها، ومَا فيهَا مِنْ جَمَال..

وَنَسِى رشدى قَلَقه وانزعَاجَه، وعاشَ حَيَاته طيلةَ هذيْن اليوميْن، وأنفقَ كُلَّ مَا أعْطُوه إيَّاهُ مِنْ ليراتٍ، انتظارًا لقُدُومهم، حاملينَ مالاً جديدًا إليْه، وأيضًا تفاصيلَ العمل الذِى سيقومُ به: كَمْ سَيَتَقَاضى؟ أيْنَ سيقُومُ به؟!.. لَقدْ قِيلَ له: إنَّ العَمَلَ فى (جنوة) بإيطاليا، لكنهم خلالَ أحَادِيثهم لم يَرد اسمُهَا مرةً واحِدَةً، خَاصَّة وهُم الذينَ يطْرحُونَ الأسئلةَ، وهُوَ يجيبُ، ومَا منْ فرصَةٍ عِنْده لِيَسْألَ، وإنْ هو سألَ لا يَحْظَى بإجَاباتٍ شَافِيَة.

وأدركَ أنَّ هناكَ لونًا منَ الغموض، لا يعرفُ لَهُ سببًا.. لكنَّ ذلكَ لمْ يدْفَعْه إلى السؤَالِ عَنْ طَبيعةِ العمل، أوْ مَكَانه، أو المرتبِ الذِى سوفَ يتقَاضَاه، لكنَّ الأُمورَ كانت من وجْهةِ نَظَرِه مُبَشِّرَةً إلى حَدٍّ كبيرٍ، ومَا يُعْطونه له فِى سخاءٍ يُؤكد ذَلِكَ.

(٦)

عمل سرى

وَجَاءَ «عادل».. وجلسَا ليتحدَّثَا مَعًا.. وبدأ الحديثُ يأخذُ مُنْعَطفًا جَدِيدًا.. سوفَ يكونُ عملُ «رشدى» مُتصلاً بمنظَّمَةٍ دُوَلِيَّة عَالميَّة، تجمعُ معلومَاتٍ عَنْ دُوَل العَالم، حولَ كَافَّة ظروفهَا الاقتصَادِيَّة، والاجتماعيَّةِ، والثَّقَافيّة.. ويهمُّ هَذِه المنظمةُ أنْ يشيعَ السلامُ فِى كلِّ الدّنيا، لذلكَ يحظَى التسليحُ بالذَّاتِ بالكثيرِ منَ اهتمامهَا.. وخِلالَ الكلماتِ التِى تتعلّقُ بالعملِ كانَ «عِصَام» هذا يضعُ بعضَ عباراتِ الثناءِ والمديحِ لرشدى.. يقول له:

– استشْعرتُ منَ الحديثِ معكَ أنكَ «إنسَان» وتؤمنُ بالسَّلام وتكرهُ الحروبَ.. أنتَ رجلُ مَبَادئ.. ومن أجلِ هَذَا نَسْتعينُ بكَ!

وَينتفخُ رشدى، ويجدُ نفسَه قَدْ حَظِىَ بمكانةٍ كبيرةٍ، ويَعْزُو ذلكَ إلى أنَّ هؤلاءِ النَّاسَ قدْ عَرفُوا «قيمَته» وأدْركُوا «أهميته»..

وهَاهُم يفاوِضُونه فِى منصبٍ «دُوَلى» ومهمة «عَالميّة».. وعَلى استحيَاءٍ يسأل:

– هلْ تعتقدونَ أنِّى أصلحُ لمثلِ هذَا العملِ الكَبيرِ؟

– مُؤكد.. لا تبخسْ نفسَكَ وقُدُرَاتِك.

– وكمْ سأتَقَاضَى عَلى ذَلِكَ؟

– هُناكَ مرتبٌ ثابتٌ، بالدُّولاَر..

– هَذَا شىءٌ طيِّب!

– وهناكَ مُكَافآت أخرى عَلى كُلِّ عَمَليّة.. وحَوَافز..

– جَمِيل..

– وأينَ سيكونُ مَقَر عَمَلى؟!

– فى الجمهورية العَربية المتحدة: سوريا ومصر.

– قُلْتم أنه سيَكُونُ فِى إيطاليا؟

– ربما بعْد، بعضُ الوَقتِ يكونُ هـذَا، حـينَ يـتمُّ تـدْرِيبكَ وعندمَا تثبتُ كفاءَتَكَ..

– سأفْعَل..

– يتبقَّى شيءٌ واحدٌ، يجبُ أنْ نتفِقَ عَلَيْه.. وهو أسَاسِى ولابدَّ من الالتزَامِ به إلى أقْصى حَدٍّ..

– أىُّ شيءٍ هو؟!

– السِّرِّيَّة.. السريةُ الكاملةُ، والمطلَقَة..

– فَلْيكُن، إذَا كَانت هَذِه رَغْبَتكم!

– بجَانِب، ألاَّ تكثرَ منَ الأسئلةِ التِى تطرحُهَا عَلَيْنَا.. مُهمتك: أنْ تُجيبَ أنتَ عَلى مَا نَسْأل.. وعليكَ أنْ تكونَ صادقًا كُلَّ الصدق فى إجَاباتكَ عليهَا، إجَابَات تفصيليّة وتكونَ غايةً فى الدِّقَّة، لأَنَّ مَا نَحْصُلُ عليْه مِنْ معْلُوماتٍ تَنْبنِى عليهَا قراراتٌ غايةٌ فِى الأهميَّةِ والخطُورَة..

– طبعًا طبْعًا..

– لاَ نريدُ أنْ نكررَ مَا نَقُوله: أقربُ المقربينَ إليكَ يجبُ ألاَّ يعرفَ شيئاً عَلى الإطلاَق.. وَإلاَّ فإنَّ مشاكلَ كثيرةً سوفَ تعترِضُكَ.. وكُنْ حذرًا مِنَ العيونِ التِى تتطلعُ إليكَ، والآذانُ التِى تتصنَّتُ عَلَيْكَ..

– بالتأكيدِ سوفَ أفعلُ..

– والآنَ، حَانَ وقتُ تدْريبكَ عَلى العَمَلِ!

لمْ يُحَاول رشدى أنْ يُديرَ فِى رأسِه هذا الحوَارَ الذى دارَ، ولم يُمْعِنْ فيه التفكيرَ، لكنه تَقبلَه فى رضًا وسُرُور، وَلَمْ يدركْ قَط أنهم يَجْتَذبُونه إلى رمال نَاعِمَة، ويَشُدُّونه إلى منطقةٍ خَطرةٍ.. كَما أنهم يُغَلِّفونَ الأُمورَ بورقٍ منَ السلُوفَان، ليبدُو كُلُّ شَىْءٍ براقًا، لامعًا، وإنْ أخْفى أكْثر مما أعْلن، وإنْ لَفَّهُ لونٌ مِنَ الغُموض، أرضَاه أكثر مما ضَايَقه.. المرتبُ جَيِّد، والعملُ دُوَلى، وهناكَ طائراتٌ، وتنقلاَت، ورحَلاَت، وفَنَادِق.. لِمَ لا يعملُ فِى دمشق؟!.. إنه سَيَتحدثُ مَع النَاسَ باللُّغةِ العَربية، وسيكونُ من السهلِ التَّفَاهم مَعَهم، والتقاطِ المعلومَاتِ الكثيرةِ فى سُهُولة ويُسْر، خاصَّةً ونحنُ أناس نُثْرِثُر كثيرًا، ونوردُ أخطَرَ البياناتِ ببسَاطةٍ، لنؤكدَ أننَاعالمونَ ببواطِنِ الأُمور، وإننَا عَلى صلةٍ وثيقةٍ بمسْئُولين كبارًا يُرْضى غُرُورهم أنْ يتحَدَّثُوا - فِى فخرٍ يصلُ إلى حَدِّ الغُرُور - عَنْ أنهم «وَاصِلُونَ»، وعَلى معرفةٍ كاملةٍ بكلِّ مَا يَجْرى وَيدُور..

وَرُبما نَتَسَاءل: كُلُّ هذا، ولَمْ يَشُكَّ «رشدى» أنَّ وراءَ هذا الذِى يجْرِى، شيئاً مُريبًا؟! ألم يحدِّثْ نفسَهُ بأنَّ هذا الغموضَ لَهُ أبْعَادٌ، يجبُ أنْ يدركهَا، وهدفٌ هو بحاجةٍ إلى أنْ يَعْرِفَه؟

الغريبُ، أنَّ ذلكَ لم يحدثْ، مَعَ الأَسَف.. مَعَ أنه كلَّفه كثيرًا فِى المستقبل، لكنَّهُ كانَ ضيِّقَ الأُفُق، تركَّزَ هَدَفُه عَلى كَسْبِ المَال، والحصول عَلى عمل، أيًّا كانَ، ما دامَ يَمْنَحُهُ هذه النُّقود التِى ينفقهَا عَلى نفسِهِ فى سخاءٍ وكَرمٍ شدِيدَيْن!

هَل كانَ جاهِلاً؟ هَلْ كانَ غبيًّا؟! أم أنه فَهِمَ، وتجاهَلَ، وَتَغَابى؟!!

(٧)

نحو الهاوية

وَبَدَأَ «عادل» يتردَّدُ على «رشدى» فِى غُرْفته، ويُدَربه عَلى بَعْض الأُمور، ويَصْحبه إلى بعض الملاَهِى ليلاً، وتوطَّدت بينهمَا العلاقةُ، وقدِ انبهرَ «رشدى» بشَخصيَّةِ عادل، وبذكَائِه، وأيضًا بإتْقَانِهِ للُّغَات الأجنبيةِ، كما سعدَ بالآمالِ العريضةِ التِى سوفَ تتحققُ إذَا مَا نجحَ «رشدى» فى عَمَلِهِ الذِى راحَ يستعدُّ له بحماسةٍ شديدَةٍ، ويتقنُ بعضَ جَوَانبه.. لقدْ عَلَّمه «عادل» كيفَ يستخدمُ الحِبْرَ السِّرِّى، وكيفَ يستعملُ «المظهر» للكِتَابةِ به، وأصبحَ يقومُ بذلكَ ببراعةٍ مُنْقطعةِ النَّظير.. وقبلَ سَفَره إلى دِمشقَ بيومٍ قَدَّم لَهُ «عادل» زجاجةَ قطْرةٍ للعُيُون، واندهَشَ «رشدى» لذلكَ، كما تعجَّبَ لأنبوبةِ مَعْجونِ الحلاقَةِ.. وقالَ له..

عَيْنَاى ليْسَت بحاجةٍ إلى قطرَةٍ !!

مَنْ قالَ إنهَا لعينيْكَ؟! هذه الزجاجةُ تحتوِى عَلى الحبرِ السِّرى.

آه، لَم أُدركْ ذلك.. والمعْجُون؟

هو «المظهر» للحبْرِ السِّرى، لكَىْ تتمكنَ مِنْ قراءةِ رسَائلنَا السِّريةِ إليكَ، والتِى تحوِى عَلى أسْئلةٍ نُرِيدُ إجَابةً عليهَا..

فَيتطلعُ «رشدى» إليْهِ فى إعجَابٍ، كأنمَا قَد أَتى بشىءٍ مُعْجز.. إنه لَمْ يكنْ ساذجًا، لكنَّهُ قليلُ الخِبْرةِ، ثَقافتهُ محدُودَة، يتحركُ وعيناهُ مُغمضتَان تجاهَ هدفٍ واحدٍ، أعمَاه عَنْ كُلِّ شىءٍ.. إنَّ التركيزَ عَلى أمرٍ يجعلُ المرءَ يغفلُ عَنْ أُمورٍ أُخرى كَثِيرة.. والإنسانُ مطالبٌ - دائمًا - بأنْ يفتحَ عَيْنيه عَلى مَا حولهُ وأَنْ يفكرَ فيه كثيرًا، لا يعرفُ أبعَادَه، ولا يستطيعُ أَنْ يكتشِفَ مَا قَدْ يكُونُ فيه مِنْ غُمُوضٍ..

وفجْأَةً، وبدونِ سَابقِ إنذَارٍ تذكَّرَ موضوعَ الإنشَاءِ، وتلكَ الحصَّة الدراسيَّة التِى مَرَّت عَليهَا سَنوات وسَنَوَات. هُو ما نسيهَا، لكنْ مَا مِنْ شىءٍ - معينٍ - يُذكُره بهَا، إنهَا تقفزُ فجأةً

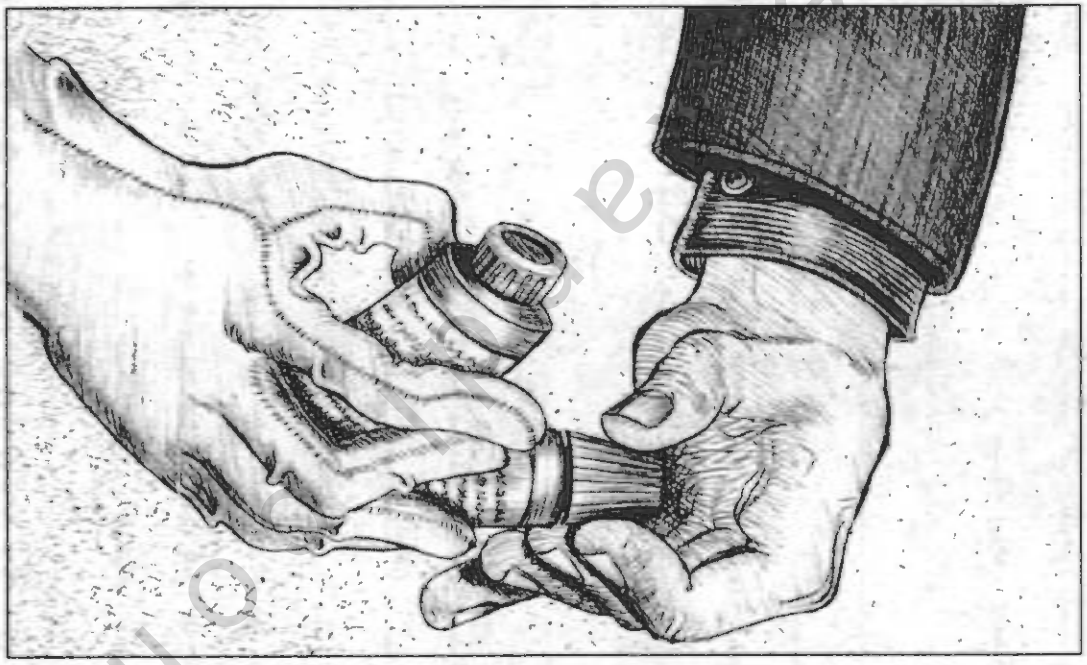

إلى رأسِهِ، ويحاولُ أنْ يُنَحيهَا عَنْ ذِهْنهِ فلاَ يَقْدر ولاَ يستطيعُ لفترةٍ ربمَا تطولُ إلى أنْ يَأْتى شىء آخرُ يُنَسيه إيَّاها، فَيَنْشغلَ عنهَا.. إنه بحَاجةٍ إلى أنْ يتحركَ لِكىْ يذهبَ إلى شِرْكةِ الطَّيَرَان ليحجزَ تذاكرَ السَّفَر، وشراءَ بعض المستلزمَاتِ التى يحتَاجهَا، خاصَّةً تلكَ الهدايَا اللَّطيفَة، وَهُوَ فى مَسِيس الحاجةِ للكثيرِ منهَا، منْ أجلِ أَنْ يقدمهَا للأصدقاءِ الذينَ سيساعِدُونه فى مهمتِه الجَليلةِ، والتِى هِىَ فِى النهايةِ ستكونُ خيرًا للإنسانيةِ جَمْعَاء..

استطاعَ أن يملأَ حَقيبةً كاملةً بهذِه الهدَايَا «المستوردة» فَقَدْ كانت مصر وسوريا فى ذلكَ الوقتِ تعتمدانِ عَلى الصناعةِ الوطنيَّةِ، والميزانياتِ مُخصَّصة من أجْلِ مشروعَات التصْنيعِ، لذلكَ فإنَّ هَذِه الكمالياتِ لم تكنْ موجَودَة فى الأسَواق، كَمَا أنَّ العيونَ تتطلعُ إليها فى لهفةٍ، ورغْبَةٍ، ويتقربُ الناسُ لمنْ يقتنيهَا ويُهْديها، وإذَا كانوا هُمْ يحسُّونَ بأنهم فى حَاجةٍ إليهم، إلاَّ أنه شخْصيًّا فى حاجَةٍ إليْهم ليَسْتقى مِنْهُم المعلومَاتِ التِى يريدهَا، والتِى تَطْلبونهَا بشدةٍ وإلحَاح،

ويصرُّونَ عَلى أَنْ تكونَ فِى مُنتهى الصِّدقِ والدِّقَة.. وامتدحَ «عادلٌ» تصرُّفَه هذا، وأمدَّه بالمزيدِ منَ المال.. هاهو قدْ بدأَ يُبْدى ذكاءً خَاصًّا، ويكشفُ عَنْ مَوَاهبَ، كانَ يَمْكنه أنْ يستثمرهَا بشكلٍ أفضلَ وبصورةٍ أَصَح وأسْلَم، لِكِنَّه اختارَ الطريقَ الأسْهَلَ، ونَحَّى عَنْ ذِهنه تمامًا أنْ يتشكَّكَ فِى طبيعةِ هَذِه المهمَّةِ.

كَانت مُهمةُ «رشدى» فِى دمشق أنْ يعرفَ الكثيرَ.. لَقَدْ عملَ مِن قبلُ فى معسكراتِ الإنجليزِ، وعرفَ كيفَ تكونُ الحياة فيهَا، وكيفَ يستخلصُ المعلوماتِ عَنها.. سواءٌ كانَت هذِه المعلوماتُ عن القواتِ السُّورية، أو المصريةِ التِى ذَهَبت إلى هناكَ.. عَدَدُهَا.. سِلاَحها.. طَعَامهَا.. مُنْشآتها.. مكانَ إقامتها.. عَرَباتها.. مُدَرَّعاتها. إلى آخرِ هذِه الأمورِ التِى كانَ يجبُ عَلى «رشدى» أَنْ يَسْألَ نفسَه:

ما حَاجةُ مَنظمَة عَالميَّة للسلامِ إلى مِثْل هَذِه البيَانَات؟!

وعندمَا وصلَ إلى دمشق كانَتِ المدينةُ كُلُّهَا تتحدثُ فى أملٍ كبير عَن العُرُوبة: التاريخُ والماضِى، ثم الوحدةُ والمسْتقبل..

وكانَ يستمعُ إلى ذلكَ بلاَ مُبَالاه، كأنما الأمرُ لاَ يَعْنيه فِى قليلٍ أو كثيرٍ.. إنه مَشْغولٌ بالمهمةِ التِى أَوْكَلُوهَا إليْهِ، والتِى سوفَ يتقاضَى عليها أجرًا كبيرًا، يتيحُ له أَنْ ينفقَ عَلى نفسِه فى كرمٍ وَسَخَاء.. وقدْ وَعَدُوه بأنْ يزيدُوا فِى مُكَافأته إذَا هو استطاعَ أنْ يقدمَ لهم معلوماتٍ كثيرةٍ، وَصَحيحة، وهو يعتقدُ فى نفسِه أنه قادرٌ عَلى ذلِكَ.. والذِى يُدْهشه أنه ما عَادَ يذكرُ أحدًا مِنْ أهْله وأصدقائِهِ، كلُّ الذينَ يفكرُ فيهم هُم القادرونَ عَلى أَنْ يمدُّوه بهذِهِ المعلوماتِ عَلى أَنْ يَتَكتَّم الأمر، كَمَا طَلَبُوا مِنْهُ - وَرَاحَ يتردَّدُ عَلى الأماكنِ التِى يُعْتقد أنَّ عندهَا مَا يَرْغبُ فِيه. وتعرَّفَ عَلى عددٍ كبيرٍ منَ العاملينَ فِيهَا، وراحَ يقدمُ لهم الهدَايَا، ويَدْعُوهم إلى الغَدَاءِ أو العَشَاء، ويُعْطيهم أُذنيْهِ طُولَ الوقْت، ويطرحُ عَلَيهم الأسئلة دونَ أن يثيرَ شُبُهَاتهم.. هِى مُجَرد «دَرْدشة» وحديثٌ عَلى الموَائِدِ، ولَوْ بثمنِ أَسْلحتهم، كَمَا يُقَال.

(٨)

العيون اليقظة

لم يتصوَّر «رشدى» أنه مُنْذُ هَذِه اللحظةِ قدْ أصبحَ مَرْصُودًا.. فقدْ كانت عيونُ رجَالنا تتابعُ «عصام» وتتبَّعَتْه خُطوةً خُطْوة، إذْ كانت تعرفُ طليعةَ مُهمته فِي روما، وَعَلى الرغمِ منْ أنه كثيرًا مَا كانَ يتخفَّى، ويَمْضِى حَذِرًا، إلاَّ أنَّ ذلكَ لَمْ يكنْ غائبًا عَنِ «الأذكيَاء»، وقد التقطُوا له عشراتِ الصورِ مع «رشدى»، ووضعُوهَا تحتَ المراقبةِ.. إنَّ رجَال «كمال صبرى» مَفْتُوحُو الأعينِ عَليْه، وبالتَّالِى تَعَرَّفوا بسهولةٍ ويُسْرٍ على «رشدى» ، لذلكَ غادرَ روما، وَقَدْ سَبَقتهُ رسالةُ تنبيهٍ وتحْذير، بأَنْ يلْقى مَا هو جَدِيرٌ به مِنْ مُرَاقبةٍ وَمتابعةٍ، إذْ ربما يقبلُ العمل - أو تحدِّثُهُ نَفْسُه بأنْ يتراجعَ عَمَّا هو مقبلٌ عَلَيه، ولا يواصلُ مَسِيرته الضَّالَّة.

وصَل «رشدى» إلى دمشق وقدِ احتشدَ بالرغبةِ فى أداءِ مَا أوكلُوه إليه، وَهُوَ يحاولُ فيمَا بَيْنه وبينَ نفْسِه أن يتغَابى،

وَيَودُّ أنْ يصَدِّقَ مَا قَالُوه لَه، وَمَا أبْلَغُوه به، إنه يعملُ لصالحِ هَيئةٍ دُوَليَّةٍ تَسْعى إلى «السَّلام»، ويسألُ نَفْسَه:

أَىُّ سلامٌ هذا الذِى حَدَّثوك عَنه وعملتَ منْ أجْله؟!

سلامُ «صَبحه»؟ «دير ياسين»؟.. وما قبلَ ذلكَ مِنْ مَذابحَ بشعةٍ عام ١٩٤٨!.. ثُمَّ أَىُّ سلامٍ هُوَ الذِى يمكنُ أن يسودَ وإسرائيل انْدَفَعَت عام ١٩٥٦م إلى سيناءَ لتحتلَّ أرضَهَا، مُتآمرةً مَعَ إنجلترا وفرنسا عقبَ تأميم مِصْرَ لشركةِ قناةِ السُّويس العَالميَّة؟! لقد أخَذَت إسرائيلُ ثمنا بَاهِظًا: أسرارَ القنبلةِ الذَّريَّةِ ويترددُ «رشدى» قليلاً، وهو يردُّ عَلى نفسِهِ:

السلامُ العَالمى مَا بينَ أمريكَا وروسيَا..

وتقولُ له نَفْسُه: وَمَا عَلاقةُ هذا بمَا لَدَى مصرُ وسوريَا منْ أسلحةٍ وَمُعِدَّاتٍ؟!

ويسكتُ «رشدى»، ويتساءَلُ:

وَمَا هذا الذِى دارَ بينكَ وبينَ مُرْتجى الهامى؟!

ارْتبكَ «رشدى»، وخفضَ من رأسِه وهو يتذكرُ ما حَدَث..

بعْدَ وُصُولى إلى دمشق تعرفتُ عَلَيه فى الفندقِ الذِى نزلتُ فيه، قالَ لى إنَّه مِنْ طاقمٍ مِيكَانيكى جَوِّى، قدمَ مِنْ مصرَ إلى سوريا مِنْ أجلِ إصْلاحِ مجموعَةٍ مِنَ الطائرات أصَابها العطبُ.. وَقَدْ أحسستُ أنَّ القدرَ قَدْ أرسلَ به إلىَّ، لكِىْ يكوِّنَ الصلةَ بينِى وبينَ الآخرينَ، وربما يمدُّنِى بمعلوماتٍ أسْتفيدُ منهَا فِى عَمَلى حيثُ قلتُ له إنِّى ضابطٌ بحرىٌّ سَابق! وكانَ أنْ تَلَقانِى باحترامٍ كبيرٍ، كمَا أنه وَثقَ فِى شخصِى كُلَّ الثقةِ، وكانَ يتحدَّثُ أَمَامى بدونِ تحفُّظٍ.. وَيَحْكِى مرتجى مَا حدثَ بعدَ ذلكَ اللِّقاء..

لقد راحَ يَدْعونا إلى الغَدَاءِ والعَشَاءِ، وينفقُ الكثيرَ عَلى سهراتٍ تمتدُّ بنَا إلى مَا بعدَ مُنتصفِ اللَّيْل، ولَمْ يحدثْ أَنَّ شكَّ فيه أحدُنَا.. إنه «ضابطٌ سابق» لا يمكنُ قَط أَنْ نَتَصوَّرَ أنه مِنَ الممكنِ أَنْ يجمعَ مَا يتنَاثر مِنْ أفواهنَا مِنْ معلُومَات، تُفْلتُ مِنَّا دونَ أَنْ نَتَنبَّه، كأَنْ نذكرَ عددَ الطائراتِ التِى ستعودُ إلى الخدْمةِ، وتلكَ التِى فِى الخدمةِ فعْلاً.. بلْ لقد جعلنَا نصْحبه يومًا إلى دَاخِلِ أمَاكن العمل، وراحَ يلتقطُ لنا

الصورَ، وكانَ فى الواقعِ يقومُ بتصويرِ المطارِ، ومَا يضمُّ وما يحتوِى مِنْ طائراتٍ وَمَدَافِعَ مُضَادَة، وَوَسَائل دِفَاع..

وَلنَا أنْ نتساءَلَ: كلُّ ذلكَ ولَمْ يُسَاوِرْهم الشكُّ فيه؟

لا لا.. إنَّهَا صورٌ تِذكَارِيَّةٌ - كَما قالَ - نحتفظُ بهَا عندَمَا نعودُ للقَاهِرة، وتبقَى مَعَنا ذخرًا لأولادِنَا، لِمَا قدَّمنَاهُ مِنْ خدمَاتٍ لقُواتنا المسَلَّحَة.. والغريبُ أَنَّهُ لم يُعْطِهم صورةً وَاحِدة مِنْ هَذِه الصُّوَر؛ واحتفظَ بالصُّورِ لنفْسِهِ.. بلْ هُمْ لَمْ يرْوهَا عَلى الإطلاَق، وادَّعَى أنَّ الفيلمَ فَسَدَ أثناءَ تَحْمِيضِه.. وَصَدَّقْنَاه، لأنه أصبحَ صَدِيقًا وصاحبًا لَنا، وَصِرنَا نَقْضِى معه أغلبَ وَقتنا بعْدَ فَرَاغنا منَ العمل..

بل امتدَّت العلاقةُ بيننَا إلى حَدٍّ أنَّه كثيرًا ما كانَ يقضِى مَعنَا طيلةَ يومنا، وَلاَ أحَدَ يشكُّ فِيه، خَاصَّة وقَدْ ظنُّوا أنه قادِم معَنَا لمعَاوَنتنا فِى مُهمتنا بخبرَاتِه السَّابقَة.. إلى أن انتهتْ مُهمتُنا، وصارَ يَتحتم عَلَيْنَا أنْ نعودَ إلى مصرَ.. لقدْ كُنَّا - بدون شكٍّ - ضَحيَّةً له، وكانَ يجدرُ بنَا أنْ نكونَ عَلى حَذَر.. وَقُبيل مُغَادرتنا دمشق عَرَضَ عَلىَّ أنْ أمدَّه منَ القاهرةِ

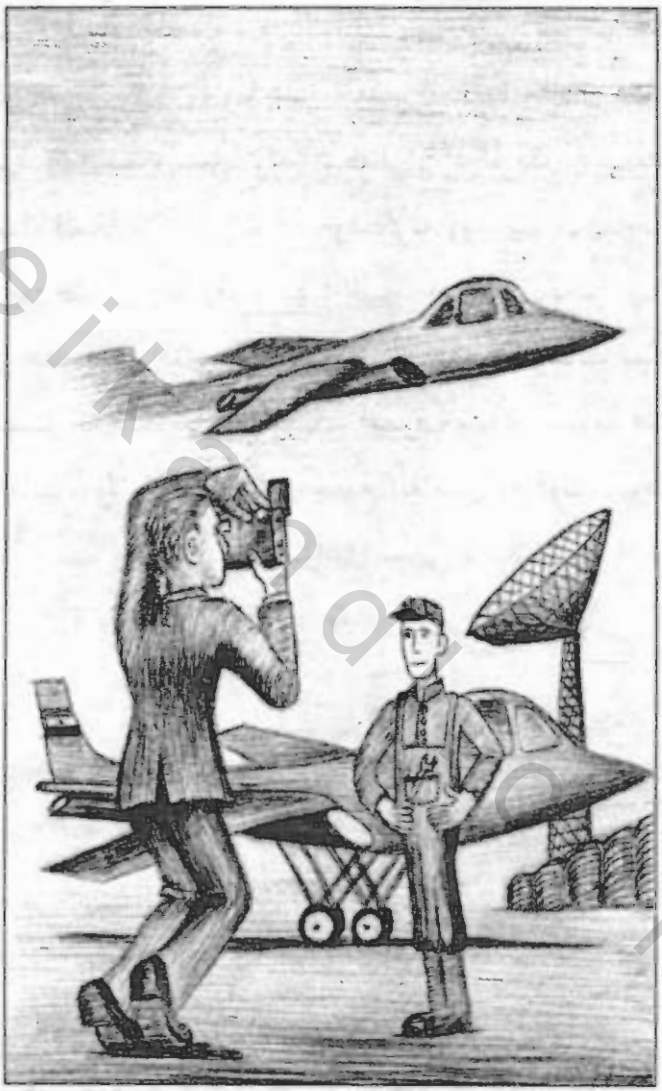

ببعضِ معلوماتٍ مُعَيَّنةٍ، وأنْ أبعثَ بها عَلى عُنْوَانه عَلِى صندوقِ بريد ٦٧٦٥.. ومنحنِى خمسينَ جنيهًا مُقَابل ذَلِكَ، كمسَاعَدةٍ، لأشترى ثيابًا ولعبًا لأَطْفالِى، إذْ لمْ يكنْ قد تبقَّى مِنْ بدلِ السَّفر إلاَّ أقَلّ القَلِيل.. وشكَرْته ووعَدْته بأنْ أبعثَ إليه بمَا طَلَب.. وقدْ بَعَثتُ بهَا إلَيْه، دونَ أن يخطرَ ببالِى مَدَى خُطُورَة مَا أَفْعل، ومَا تَصَوَّرتُ أنَّ هَذِه المعلومَاتِ يمكنُ أنْ تَصِلَ للأعْدَاء، وما كنتُ أعرفُ مَدَى سِرِّية هَذِه المعلُومَاتِ، ولا خُطُورتها لأنَّ جميعَ العاملينَ يعْرفونها، وهى شائعَة بَيْنهم ولم أدركْ أنَّ إسرائيلَ تَسْعَى لامتِلاَكها.

(٩)

الرسالة المفقودة

عندمَا التقَى «رشدى» ومرتجى، كانَ الشيطانُ ثالثهمَا، فَقَدْ بدأَ التعاونُ بينهمَا، وهو تعاونٌ عَلى الإثمِ والعدوَان، وليسَ عَلى البرِّ وَالتقْوَى.. لَقَدْ أَسَاء كُلٌّ منهما إلى وَطنِه إسَاءَة لاَ تُغْتفر.. ولكنْ مَا قَامَا به فِى دمشقَ لم تكنْ لَهُ خُطورَة، إذْ كانَ الأمرُ لا يتعدَّى بضعَ طَائراتٍ قديمَةٍ، يتمُّ إصْلاَحها.. لكنهَا كَانت فى الواقعِ مُجَرَّدَ بدَايَة، وتدْرِيبٍ لهمَا عَلى التقاطِ المعلوماتِ وتجميعهَا وإرْسَالها إلى روما..

وكانتِ العيونُ الراصِدَةُ تتبعُ كلَّ ذلكَ، وقد أمسكتْ بطرفِ الخيطِ، وَمَضت مَعه، وعندمَا بعثَ «مرتجى» بخِطَابه الأول مِنَ القاهرةِ، استطاعَت تلكَ العيونُ السَّاهرةُ أنْ تلتقطَهُ مِن العنوانِ البريدِى المكتوبِ عَلى المظروفِ ٦٧٦٥.. وَفَتحت الرسالةَ، وتمكَّنتْ منْ أنْ تعرفَ مُحْتوياتهَا، كَمَا أنها تمكَّنت

ببراعةٍ شديدةٍ، ناجمةٍ عَنْ تدريبٍ طويلٍ عَلى مُكَافحةِ التجسُّسِ والجواسيس، تمكّنت منْ تغييرِ الأرقامِ التِى احْتَوَتها الرسَالةُ، فأفْسَدَت قِيمتها، وجَعَلتها بدونِ جَدْوى حَقِيقيَّة، وتركَت هذِه الرسَالةَ تمضي فِى طَرِيقها إلى دمشق وَمنْهَا إلى رُومَا، وعندمَا وَصَلت ابتهجَ بهَا «عصام» كثيرًا، إذْ تصوَّرَ أنه وقعَ عَلى كنزٍ يتمثلُ فِى «رشدى» الذِى راحَ يُقدِّمُ لهم خدمَاتٍ معَ زميلهِ الجديدِ «مرتجى» وكانَ أَنْ تَلقَّى «رشدى» مكافأةً ماليةً كبيرةً، وَطَلَبُوا إليه أنْ يبعثَ إلَيْهم ببعضِ المعلومَاتِ عنْ مطارِ «إنشَاص»، ورأى «رشدى» أنه مِنَ الأفضلِ أنْ يزورَ القاهرةَ، ليلتقِى مَعَ زَميلهِ فى العملِ، يقتسمُ مَعَه المَالَ، وَيُكَلفه بمَا يَرْغبونَ فِيه.

نَشِطَ «مرتجى» نشاطًا كبيرًا لكى يُوَافى «رشدى» بتلكَ المعلوماتِ التِى استقاهَا مِنْ زُملاءٍ له فى ذلكَ المطارِ أَضَافها إلى مَا يعرفُهُ عنه شخصيًّا، إذْ تردَّدَ عليْه كثيرًا، خلالَ مُهماتٍ أوكِلَت إليْه كميكَانيكى جَوِّى.. وبقَى «رشدى» فى

القاهرةِ فترةً ليْستْ بالقَصِيرَة.. الغريبُ أنه لَمْ يُفكرْ فِى زيَـارَةِ أَهْله وأسْرَته، وَقَضَى كلَّ الوقتِ فى الشقةِ المفروشةِ التِى كانَ «مرتجى» قَدِ اسْتـأجرهَا لنفسِهِ عقبَ التِقَائه مَع «رشدى» فـى دمشق وبعدَ أَنْ أَصبحَ لَدَيْهِ مِنَ المال مَا يمكنّه منْ ذلك..

وتعاونَ الاثنانِ فى كتابةِ رسالةٍ بالحبْرِ السِّرى لِكَـىْ يبْعَثـا بهَا إلى رُومَـا، ولم يخـاطرْ «رشـدى» بإرسَـالهَا إلىَ هنـاكَ مِـنَ القاهرةِ، ووجَدَ أَنَّ إرْسَالها مِنْ دمشق أضمنُ وَأيْسَرُ، فَوَضـعها فـى جَيْبـه فـى حـرص شـديدٍ عليْهَـا.. وَوَدَّعـه مرتجـى فـى المطار، وسألَه أنْ يُكَرر زيَاراته وهِبَاتِهِ الماليَّة، بلْ لمْ يـنْسَ أَنْ يُوصيهِ عَلى الرِّسالةِ التِـى فِـى جَيْبـه، والتِـى تحمـلُ أسـرارًا هَامَّةً، وعِندَما وصلَ إلى دمشق، وعادَ إلى وَكْره، ومـدَّ يَـدَه إلى جَيْبه يريدُ أَنْ يخرجَ الرِّسَالةَ، وإذَا به لا يَعْثُر عليهـا، وكَـادَ يفقدُ صَوَابه فقد كانَ يتحسَّسهَا حيثُ وَضَعها فى قلقٍ عَلَيْهَا، وكانَ يَطْمئنُّ إلى وجودهَا بينَ حينٍ وآخرَ..

جلسَ «رشدى» يكتبُ ما يَتَذكَّره من معلومـاتٍ كَانَـت فِـى الرسَالةِ، وهو يكادُ يُجَـن، ويسـألُ نفسَـه بـينَ حـينٍ وآخـرَ:

كيف فَقَدتها؟!.. ولم يعثرْ عَلى جوابٍ عَلى ذلكَ السؤالِ الذِى رَدَّده ألفَ مرَّةٍ.

لَمْ يكنْ هناكَ مِنْ أحدٍ يعرفُ السِّرَّ غير الضابطِ الذَّكى «كمال صبرى»، الذِى كانتْ مُهمةُ الإيقاعِ بالجاسوسِ مِنْ مَسْئُولياته، وأرَادَ أن يلعبَ معه لعْبَةَ القِطِّ والفَارِ فيداعِبَه، إلى أنْ يحسَّ بالدَّوَارِ، ويسقطَ بينَ يديْهِ فى سُهُولةٍ وَيُسْر.. استعانَ «كمال صبرى» بالمبَاحثِ العَامَّة - وهُوَ جهَازُ الشُّرطةِ التابعِ لوزَارَةِ الدَّاخليةِ وهو ينهضُ بعبْءِ مُكَافحةِ الجرائمِ الداخلية - لقد سَألهم أنْ يُعِيروهُ نَشَّالاً بَارعًا ماهرًا، لِكْى يُدَربه عَلى النشلِ، مُقَابل تخْفيف عُقُوبته.. ونجحَ ذلكَ النشالُ نجاحًا بَاهِرًا فِى مُهمته، إلى حَدٍّ أنَّ الضابطَ «كمال صبرى» أصبحَ فى نفسِ مَهَارته، وكانَ كثيرًا مَا يُدَاعب زملاءَه أثناءَ العملِ بنشل سَاعَاتهم وأقلاَمِهم وَمحَافظهم أو سَلاسِل المفاتيحِ الخاصَّة بهم.. كانَ يفعلُ ذلكَ تدريبًا لِيَدِه وأصَابعِه، وكانَ كُلُّ مَنْ يفقدُ شيئًا مِنْ بَيْنِ زُمَلائه يَأْتيه ليسْأَلَه عَنْه! وكَانوُا سعداء بَبَراعَتِه، وضاحكُوه كثيرًا

وهُم يُطَالبونـه بـأَنْ يَسْـتقيلَ؛ لأنَّ هـذا العمـلَ الجديـدَ، فِيـه راحَةٌ له.

لَم يكُن منَ الصعْبِ عَلى «كمال صبرى» نَشْل الرسَـالة ومَـا تحويه من صُورٍ يمكنُ أنْ يستفيد منها الأعداءُ، بلْ ولقدْ نشلَ معها بَعْضَ أوراقِه المالية التِى لَمْ يَدْرِ مَا يفعـلُ بهـا فأودعَهَـا خزينةَ المخَابَرَات..

أمَّا «رشدى» فكانَ يضربُ كَفًّا بكفٍّ، مَذْهولاً، مُتَسَائلاً:

كيفَ وَقعت مَنِّى الرسَالةُ؟! مَاذَا يقولُ هذا الذِى سيجدُهَا؟

المهم أنه لَنْ يعرفَ أَنِّى صاحبهَا، ولَنْ يَسْـتفيدَ منهـا، وإنْ كنتُ قدْ خَسِرْتهَا وضَاعَتْ للأَبَدِ.

(١٠)

لعبة القط والفأر

المفروضُ أَنْ يكونَ فَقْدُ الرسالةِ إنذارًا وتَحْذيرًا.. لكنَّ «رشدى» كانَ غائبًا عنِ الوَعْى، يقومُ بأداءِ مَا هُوَ مطلوبٌ مِنْهُ بلاَ تفكير، وَيَمْضِى فيه دونَ تدبير، وعندَمَا لمْ تَصِل المعلوماتُ المطلوبةُ عَن مَطارِ «إنْشَاص»، اسْتدعتْهُ المنظمةُ إلى روما، وقد أخْفَى عنهم ضياعَ المظروفِ منْ جَيْبِهِ وادَّعى أنه بَعَثَ به فعلاً، وأنه لاَبدَّ وأنْ يكونَ قدْ ضاعَ فِى الطريق.. الأمرُ الذِى جَعَلهم يُغَيِّرونَ من رَقمِ صُندوقِ البريد، بَلْ وقَرَّروا أَنْ يَسْتَغْنوا عَن هَذا الطريقِ فى التخاطُبِ، وراحُوا يُدَربونَ «رشدى» عَلى استخدامِ اللاسلكى..

كانت هَذِه نقلةً كبيرةً له، هَاهو يستخدمُ «التكنولوجيا» الحديثةَ فى خِدْمة «السلام» الذِى حَدَّثوه عَنْ مُنَظَّمَته، بعدَ أَنْ تدربَ مِنْ قبلُ عَلى الحبْرِ السِّرِّى.. إنهَا خبراتٌ يتعلَّمُهَا يمكنُ أَنْ يَسْتفيدَ منها مُسْتقبلاً.. والسُّؤال:

ألم يخطُرْ ببَال «رشدى» حَتَّى ذلكَ الوقتِ أنَّ مَا يقومُ بـه هُو لخدمةِ إسرائيل، وأنَّ كلمةَ «السلام» هـذِه ليسَت سِوَى «ستار» لإخفَاءِ الأَمْرِ؟

هو يقسمُ أنَّ ذلك لم يخطُرْ ببَاله قَط، بَلْ إنه لَوْ خَطَرَ لـه لَتَرَاجَعَ، فهو يعتقدُ أنَّ إسرَائيلَ لاَ تسعى أبدًا للسَّلام، بَلْ إنهَا قَامَت عَلى العدوَان: فقد اعتدَت عَلى الفلسْطينيين إلى أَنْ تمكَّنَت بحربِ ١٩٤٨م مِنَ الاستيلاءِ عَلى أَرْضِهم وَطرْدِ أعدادٍ كَبيرةٍ منهم.. وفى سنة ١٩٥٦م اعتدت عَلى مصرَ بدونِ أىِّ مُبَرِّرٍ، فلاَ هِىَ عَلى صلَةٍ بشركَةِ قناةِ السُّوَيس، وتأميمِ مصرَ للشركةِ لاَ عَلاَقَةَ لَهَا به، وكانَ عُدوانهَا عَلى قِطَاع غَزَّة ثُمَّ سيناء مفاجأةً لِكلِّ العَالَمِ، الذِى اكتشفَ بعدَ يومَيْن لاَ أكْثر أنها ضمنَ مُؤَامرةٍ كُبْرى، وأنهَا ذيلٌ لإنجلترا وفرنسا، مِن أجل استعَادةِ القَنَاة.. وتسرَّبت أخبارُ أنهَا أَخَذَت ثمنًا غَاليًا لِذلكَ، فقد أمَدَّتها فرنسا بخبراتٍ ذَرِّيةٍ مَكَّنتها مِنْ إقامةِ «المفاعل النوَوِى» فِى «دَيْمونة».. ذلكَ المفاعلُ الذِى عَرَفت الدنيَا كُلُّهَا أنه قدْ تمكنَ من صُنْعِ

عَشَراتٍ مِنَ الرءُوسِ النوويَّةِ التِى تهدِّدُ بإبادَةِ المنطقةِ بأسرها..

وعَادَتْ إسرائيلُ فى العدوانِ بإعلانِهَا ضَم سيناءُ لولاَ أنَّ المجتمعَ الدُّوَلى رَفضَ ذَلِكَ، وطَالبها بالانسحابِ عَنْ سيناءَ وغَزَّة، واضْطرت عام ١٩٥٧م بالجلاء عن غزة وسيناء.

وَيؤكدُ «رشدى» لنفسِه: إننى حينَ أعملُ معَ السَّلامِ فإنَّ ذلكَ يعْنِى أننى أعملُ ضدَّ إسرائيلَ، لاَ مَعَهَا!

عندَ هذِه النُقْطَة، نَشْعُر أنَّ «رشدى» كانَ يغالطُ نفسَهُ حينَ ادَّعى أنه لمْ يربطْ بينَ مَا يَفْعلُهُ، ومَا بينَ إسْرائيل.. إنَّ شيئًا مَا بدَاخِله لابُدَّ وأنْ يكونَ قدْ جعلَهُ يشعرُ ويحسُّ بصلةٍ مَا بينَ الأمْرَيْن، لكنَّ مَصْلحته الخَاصَّة حَتَّمَت عَليه أنْ يُسْكِتَ هذَا الصَّوتَ، ويواصلَ التدرُّبَ عَلى أعمالِ اللاَّسلكى: إرسَالاً واسْتِقبالاً، إلى أنْ أتْقَنَ ذَلكَ فى فترةٍ لا تتجاوزُ ثلاثةَ شهورٍ قضاهَا فِى رومَا، وحَانت لحظةُ عَوْدته إلى القَاهرة.. وَكَانت مُخابراتنَا الذَّكيَّة، من خلال مُتَابعتها لعصام قَدْ أدْرَكت حقيقةَ مَا يَجْرى، وعَرَفتْ جانبًا مِنه، لهذَا ظلَّت تراقبُ

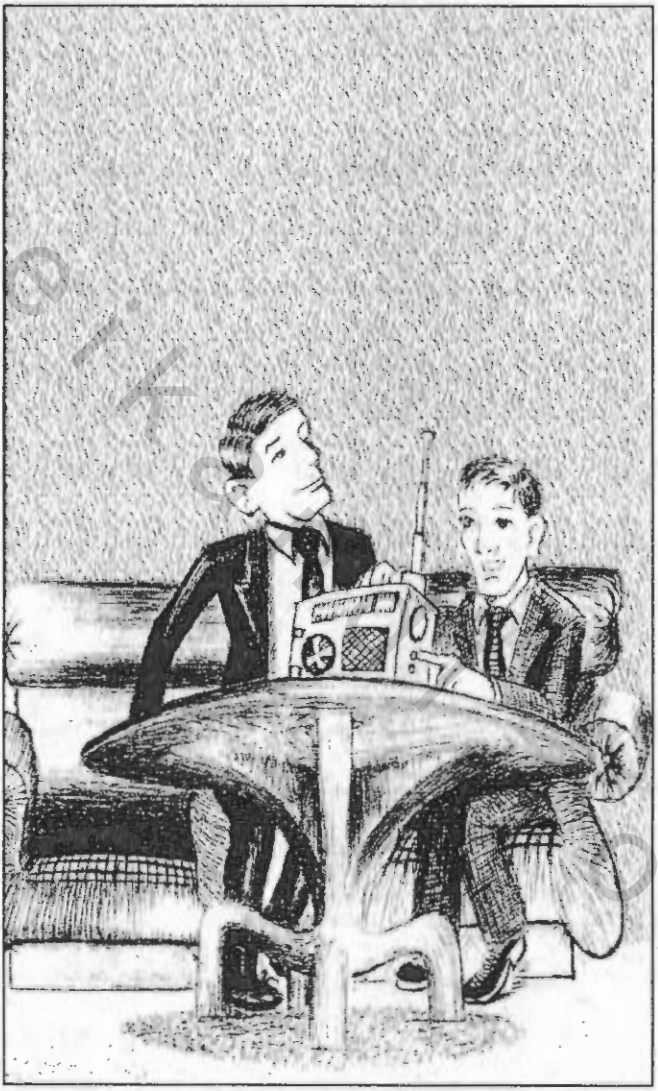

«رشدى» عَنْ بُعْد، ودونَ أَنْ يشعرَ.. وعندمَا رجعَ كَانت العُيونُ تتطلَّعُ إليْه، ولا تغفلُ عنه أبدًا..

وكانَ بينَ ثِيَابه وحَقَائبه فى رحلةِ العودةِ جهَاز التخاطبِ اللاَّسِلكى، وهوَ منْ أحدثِ الأَجْهزةِ، وأَدَقها.. ولمْ يكنْ أمرهُ سِرًّا خَفيًّا عَلى الضابطِ الهُمَام «كمال صبرى»، الذِى كانَ يريدُ أَنْ يُوقِعَ بالضَّحِية وَهِىَ فِى كامل تورُّطها، كَمَا كانَ يريدُ أَنْ يستثمرَ مُرَاقبتَه له بمعْرفةِ: مَا الذِى ترغبُ إسرائيلُ فى التجسُّس عَلَيْه؟ مَا هِى الأمورُ الهامةُ التِى تودُّ أنْ تتطلعَ عَلَيْهَا؟

الضابطُ الشَّاب لا يتعجلُ الأمورَ.. هو يعرفُ أنه سوف يتسلَّلُ ذاتَ يومٍ ليكشفَ أمرَ هَذَا الجهازَ، والموجةَ التِى يتلَقَّى عليهَا الرسائلَ، وتلكَ التِى يبعثُ من خلالهَا بالمعلُوماتِ، وتستقبلُ مُخَابراتنا هذِه وتِلْكَ، وتعرفُ منها الكَثيرَ: ما الذِى يريدونَ مَعْرفته، ومَا هِى البياناتُ التِى يمكنُ أنْ تصلُ إلَيْهم وما مَدَى خُطُورَتها؟!

لذلكَ كانَ مرورُ «رشدى» منْ دوائرِ الجمارِكِ ميسورًا وسهْلاً. الأمرُ الذِى جَعَله يشعرُ بارتياحٍ عَمِيق، على أساسِ أَنَّ ذلكَ يُؤكد له أنه ليسَ موضعَ شُبْهة.

وبدأ «رشدى» يجمعُ المعلوماتِ المطلوبةِ..

وكانَتِ «المصَادَفة» تُلْقى بينَ يَدَيه بمنْ يُقدِّمها لـه، وَيشعرُ بالارتياحِ لِذَلك، دونَ أنْ يدركَ أنَّ مَا يتصَوَّره «صُدْفة» كانَ مُرتبًا وَمقْصُودًا، إذْ أَنَّ هؤلاءِ كانَ يدفعُ بهم «كمال صبرى» إليْه، ليقدمُوا له معلومَاتٍ تبدُو سَليمةً، لَكِنهَا فِى أغلبِ الأوقاتِ كانت مُزَيَّفة، وَبَعْضهَا السليمُ كانَ يهمنَا أن يصلَ إليهمْ لسببٍ أو لآخرَ..

واسْتمرتِ اللعبةُ وقتًا طالَ.. الفأرُ يظنُّ أنه ليسَ موضعَ شَكٍّ أوْ رِيبَة، والقطُّ يُدَاعِبُه..

(١١)

السقوط

استأجرَ «رشدى» شقَّةً صَغيرةً، وكَانت قَدْ أصْبحت لديْه إمكاناتٌ مَاديَّةٌ لذلكَ، فقد رفعُوا رَاتبه إلى مَائة وخمسينَ دولارًا شهريًا وقدَّموا له مُكافأةً، هى عبارةٌ عَنْ ستمائة دولار أخرى، وَكثَّفوا منْ مَطْلَبهم منه: هُم يريدونَ كلَّ صَغِيرةٍ وكَبيرةٍ عَنْ مطار «ألماظَة» الحرْبى.. طَائِرَاته: أنواعهَا وعددهَا.. وَعَنِ الطَّيَّارينَ وتَدْريباتهم.. وَوَسَائل الدفاع عنه، ومَا إلى ذلِكَ.. ومن هنَا بدأ «رشدى» فِى الاتصال بكلِّ مَالَهُ صِلةٌ بهذَا المطَارِ وَلمْ يَكنْ لدى الضَّابطِ «كمال صبرى» مانعٌ منْ أنْ يقدمَ له بعضَ المعلوماتِ: جانبٌ منها - كما تعوَّد - لا يمتُّ للحقيقيةِ بصِلَةٍ، والجانبِ الآخرُ صحيحٌ وإن كانَ لا يفيدُ، ولا يقدِّمُ ولا يُؤَخرُ.. لكنَّه منْ أجلِ أن يَظُن مَنْ يتلقَّاه أَنَّ كلَّ المعلوماتِ سَليمة..

وكَانَ «رشدى» ومعه «مرتجى» يجريَانِ وراءَ هذِه الأمورِ فِى الوقتِ الـذِى تمكـنَ فيـه «كمـال صبرى» مـن إبعَادهمـا عَـن القاهِرَةِ فى مُهمةٍ زَائفةٍ بالإسكندرية، لكـى يتسـلَّلَ إلى الشـقةِ المسْتَأْجَرة.. وَلَمْ يكنْ مِنَ الصعبِ عَلَيْه أَنْ يـدخلَ إليهـا، وأنْ يقضىَ الليلـةَ كاملـةً فيهَـا، ومَعَـهُ طـاقمٌ كامـلٌ مِـنَ العـاملينَ بالجهـــازِ، وَمـــنْ بَيْـــنهم مهندسُـــونَ فـــى اللاَّســـلكى، والإلكترونَات، والأجهزةِ العلميَّة المتطوِّرة.. وَقَدْ فَحصُوا كـلَّ شَـىْءٍ بدقـةٍ شَـدِيدةٍ، ولمْ يتركُـوا شـاردةً ولا وَاردةً إلاَّ دقَّقـوا فيها، دونَ أن يتركُوا أىَّ أثرٍ يدلُّ عَلى أنَّ هنـاكَ مَـن اقـتحمَ المكانَ أَوْ دخلَ إليْـه.. كـانَ المكـانُ وهـم يُغَادِرُونـه كمـا كـانَ عندمَا أقبلُوا، مَعَ أنهـم قلَّبـوا كُـلَّ شَـىْءٍ رأسًـا عَلـى عَقِـب، وصَوَّرُوا كُلَّ صغِيرةٍ وَكَبيرَة..

لقدْ تمتْ عمليةُ «كمال صبرى» وَرفَاقه بنجاحٍ تَامٍّ..

كانتِ الأدواتُ التِى حَصَلَ عَليهـا «رشـدى» حَدِيثـةً، فـى ذلـكَ الحِـينِ.. إنـه «بيـك أب» لا يمكـنُ الشَّـكُّ فِيـه، لَكِـن بدَاخِله كانَ جهازُ الإرسَال.. أمَّا جهازُ الاستقبال فكانَ عبارةٌ

عَنْ راديو صَغِير عَادِى لاسْتقبال الإشَارَات عَلى موجةٍ بذاتها.. كما كانت هناكَ مفكرةٌ صغيرةٌ فيهَا شرحٌ مُفصَّل لكيفيةِ الاتصال اللاَّسلكِى وطَريقتِهِ فى الأوقاتِ العَادِيّة.. وَفى حَالةِ الطوارئ.. كَذَا الموجاتُ التِى يتمُّ الاتصالاتُ عَليها، والشفرةُ الخاصَّةُ بهَا.. هذا بجَانب آلةُ تصوير، بهَا عدسةٌ إضَافيةٌ وَحَاجزٌ للضَّوءِ، وَلوحُ زجَاجٍ صَغير، يُستخدمُ فى تصويرِ المستنداتِ.

إننا أمام معمل كامل، مُجهز بكلِّ ما يمكِّنُ الجَاسُوس مِنْ نقل مَعْلومَاته باللاَّسِلكى من القاهرةِ إلى روما، ومن روما إلى تل أبيب.. وبعدَ معرفةِ أطوال الموجاتِ الخاصةِ بالإرسال والاستْقبال، وبعدَ فكِّ الشفرةِ الخاصَّة، أصبحت كلُّ هَذِه التجهيزاتِ تحتَ سيطرةِ المخابراتِ المصريّة، وباتَ فِى مقدورِ «كمال صبرى» أن يعرفَ ما يدُورُ، ومضمونَ الرسائلِ التِى يبعثُ بها «رشدى» وزميلُه، وما يتلَقُّونه مِنْ تعليماتٍ وَأوامر..

ومرةً أُخرى، لم يكنْ «كمال صبرى» فى عَجَلةٍ مِنْ أمْره..

لماذا لا يستمرُّ فى لعبةِ القطِّ والفأر؟!.. إنه يبلِّغُ رُؤَساءَه أولاً بأول بمَا يجرى ويدورُ، وهُو مَعهم يقدرونَ مَدَى أهمية هذا الذى يَبْعثُ به «رشدى» وهُم لا يجدونَ فيه مَا يشكِّلُ أَيَّةَ خُطُورة.. ولا بأسَ من تقديمِ المزيدِ منَ المعلومَاتِ، المزَيَّفةِ حينًا، الصَّحِيحة حينًا آخر.. والرقابةُ تتمُّ عَلى أكملِ وَجْهٍ.. رقابةٌ صَارِمةٌ عَلى الإرسَالِ والاستقبال، والتَشْويش أحيانًا عَلى بعضِ مِمَّا يهمنَا ألاَّ يَصِل.. وَرَقابة أخرَى عَلى الرجُلَيْن اللَّذيْن كانَا يعملانِ، ويتحركان فى حُريةٍ كاملةٍ ظنًّا مِنْهما أَنَّ أحدًا لا يَدْرى عَنهما شيئاً، معَ أنَّ خُطوَاتهما كَانت تُحْصى عَلَيهما، وتُسجلُ كُل صغيرةٍ وَكبيرةٍ منْ جَانبِ فَريقِ عَملٍ، اختارَه «كمال صبرى» بدِقَّةٍ وَذَكاء.

وعندمَا أحسَّ «كمال صبرى» أَنَّ وقتَ العملِ قَدْ حَان، أعدَّ لكلِّ شَيْءٍ عُدَّته.. وَكانَت به رغبةٌ فى أَنْ يضبطَ «رشدى» و«مرتجى» - معًا - وَمُتلبِّسيْن، معَ أَنَّ هَذِه الأجهزَةَ، وكُلَّ القرائنِ تثبتُ إجْرَامَهُمَا، وتؤكِّدُ عَلى خِيَانتهما، لهذَا الوطنِ الجليلِ، الذِى يستحقُّ كُلَّ التكريمِ، بَلْ والتقدِيس..

وَجَاءتِ اللحظَةُ ..

كانت المفاتيحُ المصَنَّعَةُ التِى فَتَح بها البابَ من قبلُ قدْ بَدَأت تدورُ، و«رشدى» مُنهمكٌ فِى إرسَالِ إشَارَاتِهِ، مُسَاعدة «مرتجى» عندمَا دخلَ فريقُ العمل.. إنه يعرفُ طريقهُ منْ قبلُ، فقدْ قَضى ليلةً كاملةً فِى المكَانِ، وَليسَ أَيْسَرَ مِنْ أنْ يكونَ هو المعاونُ فى القبضِ عَلى الرجليْن، اللَّذيْن فُوجِئَا بحشدٍ كبيرٍ، والكلُّ يحملُ المسدَّسَاتِ، وعَلى وجْهه كلُّ علاماتِ الحزمِ والإصْرَارِ بجانبِ نظرَاتِ اشمئزازٍ تطلُّ منَ العيونِ، وَخطوة من «كمال صبرى» نحوَ جهازِ الإرسَالِ، ليُقدمَ مِنه آخرَ رسَائِلِهِ:

– عصام.. لا تحاولْ مرةً أخرى.. نحنُ لكَ بالمرصَادِ.. تعيشُ وتأخُذُ غيرهَا يَا...

وَشَفَعَهَما «كمال صبرى» ببعضِ الشَّتَائمِ والسِّبَابِ: المهَذَّبةِ.

كان «رشدى» و «مرتجى» مذْهُولين..

لقدْ كانَا مُطْمئنيْن إلى أنَّ كلَّ شىءٍ يسيرُ عَلى مَا يُرَام، ولم يخطرْ فِى بالهمَا قَطَّ أنَّ شيئًا مَا قد عُرف عَنهما، أوْ أنَّ هناكَ

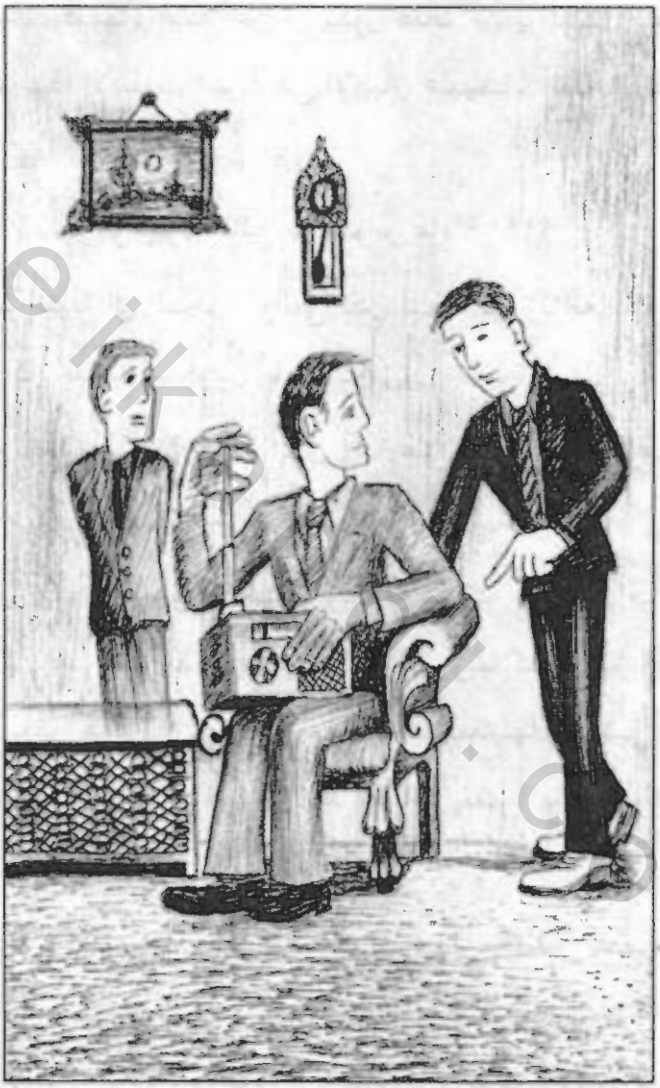

obeikan.com

من يشكُّ فيهمَا، فَضْلاً عَنْ أَنْ يكونَ هناك مَنْ يُرَاقبهما، فمَا بَالكم بهذَا الأسلوبِ الفَرِيدِ فى الإطْبَاقِ عَليهما، أثناءَ القيامِ بمهمتهمَا الوَضِيعَة.

كانَ ذلكَ هو اليومُ الثانِى من فبراير عام ١٩٦٠م..

لقدِ اقْتيدَا إلى السجن، وَأُلقِى بِكُلٍّ منهمَا فِى زِنزانةٍ منفردةٍ ورَاحَ كلٌّ منهما يستعرضُ مَا حَدَث..

ألمْ يُتح لهما هذَا الوطنُ الذِى وُلدَا عَلى تُرَابه أنْ يَأْكلا مِنْ خَيْره، وأنْ يَسْتظلاَّ بسَمَائه، وأنْ يشربَا مِنْ نيلِهِ؟!

هَلْ يكونُ هذَا هو ردُّ جميلهِ وَفَضْله وكَرَمه وَنُبْله؟! مَاذا كسَبَا؟! لقد كسَبَا بضعةَ دولاراتٍ قذرةٍ، وَربما كانت مُزَوَّرة، أنفقَا بعضَ هذِه الدولاَرات؟! لقدْ فقدَا فى مُقَابلها كلَّ شىء: الضميرَ. الكرامة. الشخصيةَ.. لَقدْ فقدَ كلٌّ منهما نفسَه، وكلَّ كسبٍ إزاءَ ذلكَ يَهُونُ، ولَوْ كَانَ الملاَيين..

هَاهُمَا، بدايةً، قدْ فَقَدَا الحريةَ، ويرقدانِ خلفَ القضبانِ جزآء مَا قدَّمته أيْديهمَا.. إنَّ أحدًا منهما لا يقدرُ عَلى أنْ

يرفعَ عَينيْـه فـيمنْ حَوْلـهِ.. وخـلالَ نقلـهما مِـنَ الزنزانـةِ إلى المحكمةِ كانتِ المطربةُ تَشْدُو ومنْ خلالِ الإذاعةِ..

– مصر مصر أُمنا..

نيلها الحياة..

مِنّةُ الإله..

ومَا أن تنتهى هذِه الأغذيةُ حتَّى تأتِى أُخرى..

كانت كلماتُ الأغانِى كأنها خناجرُ تَطْعَنهما فى قَلْبَيْهِمَا.. ويحاولُ كلٌّ منهمَا أنْ يتجاهَلَهَـا، وإذَا بالجنـدِ مِـنْ حولهمـا يردِّدَانها عن إيمان، ويكادُ الواحدُ منهما يرفعُ يديْه يضـعهمَا عَلى أذنيْهِ.. لكنْ مَا مِنْ فرارٍ منهما.. ومَا منْ فرارٍ منَ المصـيرِ المحتَّمِ الذِى ينتظرُهُمَا..

أيكونُ الإعْدَامُ ؟!

أيكونُ الأشغالُ الشَّاقَّةُ المؤَبَّدَة؟

أيًّا كانَ الحكمُ، فَلا أملَ لهما فى الحياةِ، بشرَفٍ..

كانَـا يتطلعَـانِ مـن بـينِ قضـبانِ العربـةِ التِـى تحملـهمَا، وينظران إلى النـاسِ مُـنْطلقين فـى الشَّـوارعِ، كُـلٌّ إلى غَايَتـه،

وعَلى وَجْهه ظِلاَلُ ابتسامةٍ طَيِّبة.. إنهم يتنسَّمونَ الحرِّية، ويأكلُونَ خُبْزهم بعَرَقهم، ويؤدُّون وَاجبهم نحوَ هذا الوطنِ العظيمِ العريقِ، الذِى أَحَبهم وَأَحَبُّوه.

وكانَا خلالَ المحاكمةِ يخفيانِ وَجْهيهما عنِ الناسِ الذينَ يتطلَّعونَ إليهمَا.. وكانَا يضيقانِ بآلاتِ التصويرِ التِى تُوجَّه عَدَساتها إليهمَا.. وكانت مُحَاولتهما لنفْيِ التُّهمَةِ ساذجةً، وَغَيْرِ مَقْبُولة، وَكَانت كَلِمَاتِهمَا عَنِ السَّلامِ والمنظمةِ التِى تعملُ منْ أجْله مُحاولةً أكْثر سَذَاجَة..

إنَّ دفَاعهما وَاهٍ.. ضعيفٍ.. مُتهافِتٍ.. هُمَا لَمْ يخونَا مصرَ وحْدَها، بلْ والعروبةَ أيضا.. الخطأُ مُزْدَوجٌ ضِدَّ الوطنِ وضدَّ القومِ الذينَ هُمْ مِنهم، والأَهْل الذينَ خرجُوا منْ بَيْتِهم..

وعندمَا أصدرَ القاضِى حكمَهُ بالأشغَالِ الشَّاقةِ المؤَبَّدةِ أَذْهلهما الحكمُ، بل إنَّ «رشدى» تمنَّى لوْ أنه «الإعدام».. هَلْ سَيَبقَى فى سِجْنه يأكلُ خُبْزًا مِنْ تُرْبةِ مصرَ، ويشربُ ماءً مِنْ نيلهَا؟!.. إنه لاَ يسْتحقُّه..

لقد فَتح عَيْنيه عَلى جَريمته الكُبرى..

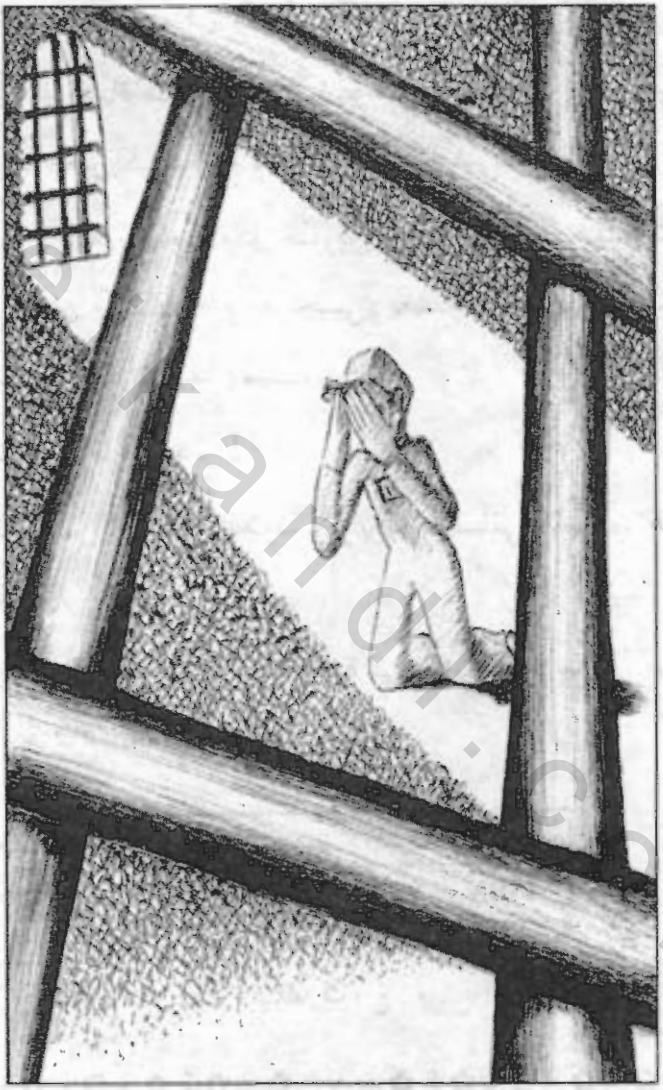

إنه لا يستحقُّ الحيَاةَ.. وكذلكَ زَمِيلُه..

ثُمَّ، أَيُّ حياةٍ هَذِه؟!.. سوفَ يموتُ فى سِجْنِه، وإذَا حَدث وامتدَّ به العمرُ لكى يخرجَ منه، فإلَى أينَ يَمْضِى ويَذهَبُ؟!..

إنهَا نهايةٌ مَأْسَاوِيَّةٌ بكلِّ صُورةٍ مِنَ الصُّوَر.. ومعَ صباحِ كُلِّ يومٍ كانَ «رشدى» و «مرتجى» يضعانِ أيديهما عَلَى وَجْهيهِمَا، وكلٌّ منهمَا يَهْتِفُ..

سَامحينَا يَا .. مصر !

لكنَّ مصرَ لا تسامحُ الخَوَنة.. وابنها «مصطفى كامل»، هو القائل:

«إنَّ مَنْ يتساهلُ ولو مرةً واحدةً فِى حَقِّ بلاَدِه، يعيشُ أبدَ الدهرِ مُزَعْزَعَ العقيدةِ، سقيمَ الوِجْدَانِ».

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٩٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6767-3

٧/٢٠٠٤/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com